47930

سلسلة رواد التنوير

شاعر النيل

حافظ إبراهيم

د. عبد المنعم إبراهيم الجميعى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

٢٠١٢

رئيس مجلس الإدارة
السفير إسماعيل خيرت

الإشراف العام
إيمان الروبى

الإشراف التنفيذي
د. إسماعيل عبد الفتاح

إشراف فنى وتجهيز
فؤاد عبد الرحيم

إخراج
أحمد سيد أحمد

تصميم الغلاف
شيرين الخزامى

الفهرس

المقدمة: ....أ

الفصل الأول: النشأة والتكوين.....................١

الفصل الثانى: شعر حافظ إبراهيم السياسى..............١٠

الفصل الثالث: حافظ إبراهيم شاعر مصر الاجتماعى........٣٤

الفصل الرابع: الفكاهة فى شعر حافظ إبراهيم.............٦٦

خاتمـة:..٧٢

مقدمـــة

يفخر التاريخ المصرى عبر عصوره بإمكانات بشرية من الإبـــداعات المثمرة أضافت للأدب العربى إنجازات هامة وللإنسان المصرى آفاقـــا لا حدود لها تحلقت به إلى اتجاهات حياتية ممتزجة بالشعور بالحيـــاة التـــى تدور حوله بما فيها من مباهج ومتاعب خاصة إذا كان المبـــدع قـــد نـــشأ وترعرع بين أوساط المصريين البسطاء والعامة وعاش عيشتهم وأحـــس بإحساسهم، وعاش بين الحوارى والأزقة والتصق بأهلهـــا ووقـــف علـــى ملامح حياتهم المصرية الخالصة وما يظللها من بؤس وحرمان، وخـــالط الناس بجميع طبقاتهم حيث انبعث عن غمار عامة الشعب، وعانى وذاق ما يعانيه أفراده من فقر وحرمان فالتأم شقاؤه بشقاء أمته فكانت أشعاره تعبيرا حيا عما يدور بخلد الشعب فعمل على رفع مستوى شعبه الاجتماعى وبعث وعيه الوطنى وقد انفرد حافظ بهذه الخاصية بين شعراء عصره فكان من أعلم الناس بمشاكل هذا المجتمع وعيوبه خاصة وأنه عـــاش بـــين طـــين مصر، وأجرى ماء النيل فى دمه كل آلام المصريين وآمالهم ومـــشاعرهم وسكبت سماء مصر فى روحه روح مصر الخالدة وما تشعر به ، فكـــان أسلوبه التهكمى فى قصائده يحمل التنكيت والتبكيت معا فأحيانا يـــستهجن أفعال المصريين ويلهب ظهورهم ويكشف سوءاتهم وفـــى نفـــس الوقـــت يحتضنهم ، ويعانقهم بقلبه وعقله ، وبمشاعره، وفى أحيان أخرى يداعبهم ويشجعهم على ولوج ركب النهضة ويبعث النخوة فـــى نفوســـهم وكانـــت عباراته سهلة بالنسبة لهم ومعانيها أوضح لأنه كان يحس إحساسا قويا أنه يخاطب الشعب المصرى فى مجموعه، فعبر شعره ذو الأسلوب الكلاسيكى

الحديث عن الأحاسيس الشعبية بطريقة يمكن لرجل الشارع أن يفهمها ، فكان يلقى شعره علنا أمام الناس يوضح فيه مشاكلهم الاجتماعية ويعبر عن رأيه فى أحداث الوطن مؤكدا دعمه للمطالب الوطنية ، كما ساهم حافظ بآرائه فى الصحافة المصرية يتندر على من حوله من الناس الذين يتقبلون كل ما يقوله حافظ قبولا طيبا لأن شخصيته البسيطة التى تأثرت باليتم المبكر كانت هى التى تحرك لسانه وتقود أفعاله، فراح فى مجموع شعره يبكى حظه وحظ أمته ، وكانت آراؤه فى روحها وجوهرها تعبيرا عما يجيش فى صدور أبناء وطنه ، لذلك كان أول شاعر مصرى يعالج مشاكل وطنه بأسلوب شعبى سهل على الناس استيعاب المفاهيم الوطنية الذى كان إدراكها قاصرا على الصفوة ، وعاش يتأمل أوضاع وطنه ويعانى مشاكله فترجم بشعره عما يجول بخاطر شعبه ، فطالما غذى الناس بشعره وهيجهم بأفكاره، وأضحكهم وأبكاهم مما أقلق بال رجال السياسة، ونازله خصومه من الشعراء والأدباء فنال منهم أكثر مما نالوا منه، وكانت دعوته ذات تأثير قوى فى نفوس مواطنيه لأنها نابعة من شعور عميق بما يعانيه الوطن من متاعب وآلام ورغبة فى العودة إلى الإصلاح والنهوض بالمجتمع.

إن حياة حافظ ابراهيم تحتل عصرا كاملا من عصور حياة مصر والمصريين فقد نشأ فى عصر اسماعيل ذلك العصر الذى ازداد فيه التدخل الأجنبى بعد الأزمة المالية التى نتجت عن القروض التى عقدها والتى أدت إلى المراقبة الثنائية لإنجلترا وفرنسا على شئون مصر المالية ، وأن يكون لكل من الدولتين وزير فى الوزارة المصرية مما كان له أثره فى نمو الحركة القومية ، وارتفاع صوت المصريين بالإصلاح، وأن تكون مصر

للمصريين لا للأتراك ولا للأوروبيين وساعد على ذلك ظهور الصحف الوطنية ، ولم تلبث الظروف أن أطاحت باسماعيل عن عرشه فخلفه ابنه توفيق الذى ازدادت الأمور فى عهده سوءا، فانفجرت الثورة العرابية التى كانت صدى لأمانى المصريين وتطلعاتهم، إلا أن مثل هذه الحركة لم تكن لترضى عنها الدولة الاستعمارية لذلك سعت لإحباطها وانتهى الأمر بالاحتلال الانجليزى لمصر فى عام ١٨٨٢ ، ومنذ ذلك التاريخ لم يكف المصريون عن مقاومة الاحتلال، فقامت الزعامات المصرية وعلى رأسها مصطفى كامل ومحمد فريد بالدعوة إلى الجلاء وخروج المحتلين ، وعندما قامت الحرب العالمية الأولى أعلنت انجلترا حمايتها على مصر وقامت بعزل الخديوى عباس الثانى ولما انتهت الحرب، وأعلنت مبادئ الرئيس الأمريكى ولسن الأربعة عشر والتى تتضمن حق تقرير مصير الشعوب توقع المصريون خيرا وطالبوا بالاستقلال ، ولما يئسوا من الاستجابة لمطلبهم قامت ثورة ١٩١٩ التى أظهرت إصرار المصريين على حقهم فى الحرية والاستقلال ، وأبرزت الوحدة بين عنصرى الأمة فى جبهة كفاح واحدة، وانتهت باعلان استقلال البلاد المنقوص بمقتضى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، ثم صدور دستور ١٩٢٣ وبداية الحياة البرلمانية فى مصر، وتشكيل وزارة الشعب برئاسة سعد زغلول وما أعقبها من وقوع مقتل السردار واستقالة سعد ووفاته فى عام ١٩٢٧ وإلغاء صدقى لدستور ١٩٢٣ وما تبعه من أحداث وخلال ذلك استمر حافظ ابراهيم منفعلا مع أحداث وطنه حتى آخر لحظة فى حياته.

وتبعا لذلك فقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى أربعة فصول تناولت نشأة وتكوين حافظ وشعره السياسى والاجتماعى والفكاهى بالإضافة إلى المقدمة

والخاتمة وقد عنون الفصل الأول، حافظ ابراهيم بين النشأة والتكوين، وشمل حياة حافظ وتبرمه بكل قيود الحرية، واختلاط نفسه بنفس الشعب المصرى وامتزاج روحه بروحه حتى عبر عن مطالبه بكل صدق وموضوعية.

وعنون الفصل الثانى " شعر حافظ السياسى"، وتم فيه تناول قصائده الوطنية التى كانت تنادى بالنهضة وتبعث على النخوة بكل ما تجيش به نفسه من المعانى بعد أن أنتهت الثورة العرابية بنكبة الاحتلال وتطلع المصريون إلى الحرية والدستور.

وعنوان الفصل الثالث "حافظ ابراهيم شاعر مصر الاجتماعى" وفيه تعرض حافظ لحياة مصر والمصريين بشكل مباشر، واقتحم خفاياهم، والهب بين ثنايا شعره ظهورهم وكشف عيوبهم واستهجن أفعالهم بأسلوب واضح جعل البعض يطلق عليه شاعر مصر الاجتماعى بلا منازع.

أما الفصل الرابع فقد كان بعنوان "الفكاهة فى شعر حافظ ابراهيم "، وفيه برزت نوادره ودعاباته بشكل يجمع بين التنكيت والتبكيت ومن هذه الفصول وهذه الدراسة يتبين لنا أن حافظ أوقف حياته على التغنى بأحاسيس قومه وأفكارهم وآلامهم وآمالهم ، وأنه كان صادق الشعر فى مصريته ، وفى كل ما كتبه من أشعار، وكل ما نأمله أن نكون قد أعطيناه حقه، وأن يتعرف أبناء الجيل الجديد على تضحياته.

والله ولى التوفيق

الفصل الأول
النشأة والتكوين

ولد حافظ ابراهيم فى دهبية راسية على شاطئ النيل قرب قناطر ديروط فى صعيد مصر كان يسكنها والده ابراهيم افندى فهمى أحد المهندسين المشرفين على هذه القناطر مع زوجته الست هانم كريمة احمد البورصة لى بك، وكأن القدر قد شاء ألا يولد شاعر النيل إلا على صفحة النيل ، وتاريخ ميلاد حافظ يكتنفه الغموض، فلم يعرفه أحد بالضبط كما أقر بذلك حافظ نفسه أمام القومسيون الطبى عندما أريد تعيينه فى دار الكتب وإن كان من المؤكد أن ميلاده حدث فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ولم يعش والد حافظ طويلا بعد ولادته ولم يرزق ولدا غيره إذ توفى وحافظ فى الرابعة من عمره، ففقد حنان الأبوة وحرم دفء الأسرة المستقرة، وترعرع بين أحضان الفاقة واليتم والبؤس والقلق فانتقلت به والدته إلى القاهرة ، ونزلت عند أخيها محمد نيازى الذى قام على تربيته وتولى أمره، ولما أهلت السن القانونية حافظ لدخول المدرسة ، وتحصيل العلم تلقى تعليمه الأولى فى عدد من المدارس الابتدائية فدخل المدرسة الخيرية بالقلعة وكانت مكتبا تعلم فيه القراءة والكتابة وشيئا من العربية والحساب ثم دخل مدرسة القربية الابتدائية وتحول إلى مدرسة المبتديان، ولما أنتهى من تعليمه الابتدائى التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية بدرب الجماميز، ولكن لم يطل مقامه فيها حيث انتقل مع خاله إلى طنطا حيث كان يعمل مهندسا للتنظيم هناك، ولم تكن قدرته المالية تسمح له ان يستبقى

حافظ بالقاهرة لإتمام تعليمه بها، مما أدى إلى توقف حافظ عن متابعة التعليم، وكان عمره وقتذاك ستة عشر عاما مما طبع فى نفسه الحزن، وجعله يمتلك نفسا بائسا، وقلبا كسيرا وروحا لايقبل عليها السرور فعاش عيش الإهمال والملل وضاق بالحياة التى حرمته من التعليم ، وأصبح لا يكترث بها كما ازداد اختلاطه بالطبقات الشعبية وأحس بما تعانيه من متاعب وجهد خلال بحثها عن لقمة العيش، وخلال ذلك وجد فى نفسه ميلا إلى الأدب وكتابة الشعر متأثرا بالشاعر محمود سامى البارودى حيث كانت الطبيعة قد حبته بالموهبة الروحانية فأخذ ينهل من دواوين الشعر ، ويربى نفسه بالمطالعة وشجعه على ذلك الشيخ عبد الوهاب النجار الطالب بالمعهد الأحمدى بطنطا الذى لم يلبث أن كان مغرما بأدبه وما يشتمل عليه من ظرف ولطف وسرعة خاطر، والذى كان حافظ يبرز فيه بواعث من طبعه وروحه ولا يستلهم منه سوى ذكرياته المليئة بالألم والحرمان. واستمر حافظ فى تغذية ملكاته ومواهبه فثَقَّفَ نفسه ثقافة حرة واسعة النطاق، وغير مقيدة بمنهج دراسى أو غيره ، فلا عمل له ولا مدرسة إلا مدرسته التى أنشأها بنفسه لنفسه، وإلى جانب ذلك فقد رسبت فى نفس حافظ الحياة الشعبية فى رحاب السيد البدوى بين الدراويش والأدعياء مما جعل بعض أشعاره تختلط بتعبيرات جارية على أفواه العامة. وظل حافظ على ذلك الحال بلا عمل يتكسب منه حيث لم يكن قد حصل على شهادة تضمن له عملا حكوميا، حيث اتخذ لنفسه من قراءة الأدب عملا، ومن شعره صديقا ، ولما كانت مهنة الأدب فى ذلك الوقت لم تكن تحقق كسبا يتعيش منه، فلم يلبث أن ضاق به خاله ودب الخلاف بينهما فقرر حافظ أن

يهجر بيت خاله بعد أن كتب له بيتين من الشعر يدلان على ما فى نفسه من ألم عميق وهما:

ثقلت عليك مؤونتى | أنى أراها واهية
فافرح فانى ذاهب | متوجه فى داهية

إن هذا الشعر البسيط يؤكد الموقف الأليم الذى تعرض له حافظ حيث أصبح بلا عمل ولا مأوى ، وكان أحيانا يتضور جوعا فلا يجد ما يأكله فيتمنى أن يموت، وكثيرا ما كان يشكو الدهر وأحداث الزمن ويندب سوء حظه وما كان فى نفسه من حزن عميق وألم كامن ومن ذلك قوله:

عجبت لعمرى كيف مد فطالا | وما أثرت فيه الهموم زوالا
وللموت مالى قد أراه مباعدا | وجل مرادى ان أوسد حالا
فللموت خير من حياة أرى بها | ذليلا وكنت السيد المفضالا

وخلال ذلك بدأ حافظ يبحث عن عمل ليقتات منه، ولما كانت مهنة المحاماة فى ذلك الوقت لا تحتاج إلى شهادة بل إلى شخص فصيح اللسان وهذا ما يتوفر فى حافظ فقد عمل حافظ مساعدا لأحد المحامين فى طنطا وكان يسافر إلى المحاكم الجزئية القريبة من طنطا، ويترافع فى القضايا ويكسبها غير أن طبيعته القلقة لم تكن تؤهله للصبر فى تمحيص القضايا وكتابة المذكرات وإعدادها، فترك هذه المهنة، وسافر إلى القاهرة حيث عثر على بارقة أمل جديدة، بعد أن أعلنت الكلية الحربية عن قبول دفعة جديدة بها، وكانت فى ذلك الوقت تقبل حاملى الابتدائية فالتحق بها وكان لا يزال فى فتوة الصبا ومستهل الشباب حتى تخرج فيها عام ١٨٩١ وعين برتبة الملازم ثان وبقى فى هذه الوظيفة بالقاهرة ثلاث سنوات، ولما كانت

وزارة الحربية وقتذاك تمد الداخلية بضباطها حيث لم تكن كلية الشرطة قد أنشئت بعد، فقد أعارت حافظ للداخلية فى وظيفة ملاحظ ببنى سويف، ونظرا لأن هذه الوظيفة لا تلائم طبعه ، فقد ضاق بها ، وبما يتعرض له رجال الأمن فى الأقاليم، مما دفعه إلى تركها والعودة إلى الجيش ومما يذكره حافظ عن سبب ضيقه من هذه الوظيفة ونفوره منها قوله كنت نائما فى بيتى وإذا برسالة من شيخ البلد فى احدى القرى تقول "وقعت الحائط وزهقت الأرواح " فأسرع بالانتقال إلى القرية حيث وصل إلى مكان الحادث فوجد أن جدارا قد سقط وقتلت تحته ثلاث دجاجات فسأل حافظ شيخ البلد أين الأرواح التى ازهقت ؟ فرد عليه متعلثما والله يا سيدى إنى تشاحنت مع نسائى وحلفت بالطلاق لأحضرن البوليس، وأخذت أتلمس الوسيلة لذلك حتى علمت أن جدارا قد وقع وماتت تحته ثلاث دجاجات فأرسلت هذه الرسالة ليحضر إلينا البوليس فأبر بالقسم العظيم ، فقال له حافظ والله لتكونن روحك إحدى هذه الأرواح التى زهقت كما تزعم وانهال على شيخ البلد ضربا حتى كان يموت بين يديه. ترك حافظ وظيفته وعاد إلى الجيش وخلال ذلك ألحق بحملة كتشنر المرسلة إلى السودان عام ١٨٩٦، وقضى بعض الوقت فى سواكن والخرطوم، ومن هناك أرسل إلى أصدقائه بمصر شعرا قويا رصينا ولما كانت إقامته بالسودان موحشة ومؤلمة بالنسبة له خاصة وأنه لم يطق الجو هناك فقد كتب إلى أحد أصدقائه يشكو الوحدة ويتشوق إلى مصر بعد أن عرفت نفسه ذل الكسير المهيض الجناح وبعد أن تحطمت آمال أمته فى الثورة العرابية ، فتحدث عن السودان حديث الساخط الباكى بقوله:

رميت بها على هذا التبـــاب | وما أوردتهـــا غير الســـراب
وما حملتهـــا إلا شقـــــــاء | تقاضـــينى به يـــوم الحســـاب
جنيت عليك يا نفسى وقبلى | عليـــك جنى أبى فدعى عتابى
فلولا أنهـــم وأدوا بيانـــــى | بلغت بـــك المنى وشفيت ما بى
سعيت وكم سعى قبلى أديب | فآب بخيبـــة بعد اغتـــــراب
وما أعذرت حتى كان نعلى | دمـــا ووسادتى وجه التـــراب
وحتى صيرتنى الشمس عبدا | صبيغا بعـــد ما دبغت إهابـــى
وحتى قلم الإمـــلاق ظفرى | وحتى حطـــم المقدار نابـــى
متى أنا بالغ يا (مصر) أرضا | أشم بتربهـــا ريح المـــــلاب
رايت ابن البخار على رباها | يمر كأنه شـــرخ الشبـــــاب
كأن بجوفه أحشاء صـــــب | يؤجج نارها شـــوق الإيـــاب
إذا مالاح ساعلنا الدياجـــــى | أبرق الأرض أم بـــرق السحاب

وزاد حاله سوءا فى السودان بعد كراهية كتشنر له، وبعد أن رأى سوء معاملة الإنجليز للمصريين، فحاول أن يعبر عن ثورته إزاء هذا الظلم بأن شارك فى جمعية سرية مع بعض زملائه من الضباط ولما انكشف أمـــره، بعد أن وشى به أحد الوشاه إلى الانجليز بأنه يحرض على الثورة ضدهم، تمت محاكمته أمام مجلس عسكرى وأحيل إلى الاستيداع وعاد إلى مـــصر وهو فى حالة نفسية صعبة خاصة وأن نفسه الشاعرة لا تقبل الظلم فأصبح عاطلا ، مما أثر فى نفسه تأثيرا بالغا، وضاقت الدنيا فى وجهه فأخذ يبث شكواه فى كل مكان، يلعن البؤس والشقاء وعدم استقرار الأحوال كما أخذ

يتلمس لنفسه طريقا فى الحياة يعيش فيه، وظل يشكو أيامه ويضحك من شقائه، ويستمر فى الناس، ويتندر عليهم حتى صار نديما لكل مجلس وخلال ذلك تقرب من رجالات الحركة الوطنية وبعض أفراد الطبقة المثقفة أمثال الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين ومصطفى كامل ومحمد فريد وعلى يوسف وحفنى ناصف وغيرهم ، وكانت مجالسهم تعد من أرقى المجالس التى تطرح فيها المسائل السياسية والاجتماعية والعلمية وتعرض فيها الحلول المختلفة فقد أستطاع حافظ أن يكون صداقات معهم بعد أن أعجبتهم فيه الصراحة النادرة ، والسخرية اللاذعة وأحاديثه التى ترتاح إليها النفس وبدأ يتعرف منهم على الآراء السياسية، وأن يكون له فيها رأى خاص أفرغه بعد ذلك فى أشعاره، وخلال ذلك توثقت صلته بالشيخ محمد عبده خاصة بعد أن قدم له قصيدة هنأه فيها عندما أسند إليه منصب الإفتاء فى سنة ١٨٩٩ نذكر منها:

لئن ظفر الإفتاء منك بفاضل

لقد ظفر الإسلام منك بأفضل

فما حل عقد المشكلات بحكمة

سواك ولا أربى على كل حول

ثم صحب الشيخ محمد عبده بعد ذلك فى كثير من تنقلاته فى الريف للدعوة إلى فعل الخير أو للترويج لحركة الإصلاح واشتدت بينهما أواصر المودة حتى غبطه الكثيرون على ذلك وحول هذا الموضوع يقول حافظ " لقد كنت ألصق الناس بالإمام أغشى داره ، وأرد نهاره، والتقط ثماره" وخلال ذلك نظم حافظ مجموعة من أجود قصائده وأكثرها صدقا

وإخلاصا، وتألقت شاعريته وعرف له معاصروه فضله . وفجأة ابتسمت الحياة لحافظ حيث تم تعيينه فى عام ١٩١١ رئيسا للقسم الأدبى بدار الكتب الملكية بعد أن توسط له فى ذلك "أحمد حشمت باشا" وزير المعارف وحول ذلك يذكر الدكتور طه حسين فى كتابه حافظ وشوقى " إنه كان يقضى صباحه فى دار الكتب يعبث بالموظفين ويتندر عليهم ، أو على باب الدار يدخن سيجاره الضخم ، أو فى قهوة دار الكتب يدخن الشيشة ، فإذا كان المساء أنفق وقته بين أصدقائه فى الأندية الخاصة والعامة.

وفى هذه المجالس كان حافظ يجلس مع أصدقائه من السياسيين والمفكرين يتحدث فى السياسة وفى أحوال البلاد وطريقة إصلاحها مازجا ذلك بالنكات والنوادر التى تعبر عن شكواه من البؤس والدنيا والقدر ، وقد جمع هذه الآراء التى عبر عنها بأجلى بيان فى كتابة "ليالى سطيح" وهو كتاب كتبه نثرا وبه بعض فقرات من الشعر وجعل منه حوارا بين نفسه وغيره من المثقفين وبين الفيلسوف الناسك سطيح الذين كانوا يسمعون كلامه دون أن يتراءى للناظرين وقد تناول حوارهم شئون مصر ونقدها نقدا مرا، فهو مثلا يسخر من مشايخ الطرق الصوفية ويصفهم بأنهم أسعد الناس فى مصر لأن الناس تسرف فى طاعتهم وتبجيلهم وهم أحياء، ويشيدون لهم القبور ويلتمسون منهم البركة بعد مماتهم. وينتقد حافظ فى هذا الكتاب مبالغة الناس فى خدمة الحكومة، ويدعو إلى إصلاح التعليم وإنشاء جامعة لتنوير المصريين وتعريفهم بحقوقهم ، كما ينتقد الصحف العميلة للاحتلال ونظم الاستبداد ويدعو إلى الحفاظ على اللغة العربية وبعث الحياة فيها . وإلى جانب ذلك فقد اشترك بقلمه فى الأحداث التى

هزت بلاده ، وكان من خير شعره ما قاله فى حادث دنشواى وفى رثاء مصطفى كامل وسعد زغلول ، وإلى جانب ذلك فقد كان دائما يصرخ فى وجوه المصريين طالبا منهم التمسك بلغتهم العربية وبوطنيتهم المصرية.

ولما كان حافظ ملما باللغة الفرنسية، فقد مكنه ذلك من الاطلاع على شئ من آدابها، وقد ترجم " البؤساء" لفيكتور هوجو" وترجم بعض مقالات لجان جاك روسو واشترك مع الشاعر خليل مطران فى ترجمة كتاب "موجز الاقتصاد" وكان يقرأ بعض ما يترجم من الأدب الانجليزى خاصة ما كتبه شكسبير ومع كل ذلك فقد كانت اللغة العربية هى مصدر ثقافته ومنبع تجاربه الواسعة.

حقيقة لقد كان حافظ من المفتونين بأدب اللغة العامية وكان يحفظ الكثير من الأزجال والمواويل الشعبية غير أن اتصاله بالشيخ محمد عبده وحضوره بعض دروسه التى يلقيها على تلاميذه فى منزله دفعه إلى أن يتحول إلى مناصرة الفصحى، وأنشد قصيدته المشهورة متحدثا بلسان اللغة العربية:

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن

فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى

كما أن حبه لمصر فاق كل حب ، ذلك الحب الذى جسده فى قصيدته المعروفة " مصر تتحدث عن نفسها عام ١٩٢١" وشدت بها أم كلثوم مجسدة شموخ مصر وكبرياؤها :

كم بغت دولة على وجارت

ثم زالت وتلك عقبى التعدى

وظل حافظ يعمل فى دار الكتب حتى خرج إلى المعاش فى عام ١٩٣٢ يكتب أشعاره الوطنية والاجتماعية بشكل اهتزت لـــه القلـــوب وتحركـــت الأفئدة حتى لقّبَ بشاعر الشعب الثائر الذى ارتبطت عبقريته الشعرية مـــع بيئته وأحداث حياته حتى وافته المنية فى ٢١ يوليو ١٩٣٢ أى بعد خمسة اشهر من خروجه إلى المعاش، وشيعت جنازته وسارت مصر وراءه بعد أن لبست ثوب الحداد، وتحطم فى نفسها آمال كبار كانت ترتجيها من فيض شعره.

الفصل الثانى

شعر حافظ إبراهيم السياسى

شهد عصر حافظ ابراهيم العديد من كبار الشعراء أمثال البارودى وشوقى واسماعيل صبرى وغيرهم ومع ذلك فان ميزة حافظ الكبرى أن شعره تبلورت فيه آمال أمته، وتألقت الروح الوطنية فى كلماته فكانت الأمة تشكو من الاحتلال ومن فوضى الأخلاق وكان زعماء الوطنية والإصلاح الاجتماعى يلهبون حماسته، وكان حافظ يجمع كل ذلك فى نفسه وكان فى شعره يقف مساندا للصحافة الوطنية وقادة الرأى السياسيين والاجتماعيين يجلس فى مجالسهم ويغذى عواطفه من عواطفهم ثم يخرج ذلك كله شعرا قويا ملتهبا يفعل فى النفوس ما لا تفعله الخطب والمقالات، فكان حافظ شاعر الوطنية وشاعر الشعب وشاعر السياسة والاجتماع ولم يجاريه أحد فى ذلك من شعراء عصره خاصة وأن حبه للوطن ملك عليه شغاف قلبه وقد عبر عن ذلك بقوله:

متى أرى النيل لا تحلو موارده   لغير مرتهب لله مرتقب

فقد غدت مصر فى حال إذا ذكرت   جاءت جفونى لها باللؤلؤ الرطب

كأنى عند ذكرى ما ألم بها   قرم تردد بين الموت والهرب

لذلك فإنه كثيرا ما يتضمن شعر حافظ السياسى شعرا اجتماعيا لما كان من تداخل السياسة بالمجتمع، إذ كثيرا ما تكون المشكلة السياسية متفرعة من مشكلة اجتماعية وبالعكس. لذلك فإننا نجد فى شعر حافظ السياسى شعرا اجتماعيا، وفى اجتماعياته شعرا سياسيا.

وباستعراض شعر حافظ السياسى نقف على ألوان مختلفة من القصائد، ولعل أهمها ما يتعرض فيه للاحتلال وموقف الإنجليز من مصر والسودان، فمصر بلد محتل، يسيطر المعتمد البريطانى على كافة أموره، كما سيطرت انجلترا على السودان ومقدراته.

وحافظ كشاعر عاشق لمصر ينطق بلسانها وعواطفها، ويتجاوب مع أحاسيسها، تتدفق هذه الأحاسيس الوطنية فى قلبه فينتج عنها شعرا.

لقد عشق حافظ مصر عشقا ملك عليه عاطفته ووجدانه حتى أن وطنياته وسياساته ظلت بمثابة الدعامة التى تستند إليها قدراته باعتباره شاعرا مجاهدا ومدافعا عن وطنه.

كم ذا يكابد عاشق ويلاقى فى حب مصر كثيرة العشاق
إنى لأحمل فى هواك صبابة يا مصر قد خرجت عن الأطواق
لهفى عليك متى أراك طليقة يحمى كريم حماك شعب راق

ولقد ساقه هذا الحب إلى أن يجعل من نفسه شاعر أمته الوطنى والمؤثر البالغ الأثر فى إلهاب شعورها وإذكاء حماسها. وأحد عوامل تكوين الحركة الوطنية المصرية حيث اندمج باحساسها وأخرج شعره المعبر عن هذه المعانى كلها فيتغزل بمصر ويتغنى بها فيقول:

وما أنا والغرام وشاب رأسى وغال شبابى الخطب الجسام
لعمرك ما أرقت لغير مصر وما لى دونها أمل يرام
ذكرت جلالها أيام كانت تصول بها الفراعنة العظام
وأيام الرجال بها رجال وأيام الزمان لها غلام
فأقلق مضجعى ما بات فيها وباتت مصر فيه فهل ألام؟

ولم يشأ حافظ أن يكون شعره فى وطنه طبلا أجوف، وإنما اتخـذ مـا يحدث من أحداث فى وطنه أساسا لدعوته فيختار منه موضوعا لشعره.

لقد بدأ حافظ هجومه على الإنجليز منذ بدايات حياته الأولى أثناء عمله ضابطا فى السودان بعد أن عرف سوء نيتهم ، وأعرب عن اليـأس فـى جلائهم عن وادى النيل فقال:

أرى مصر والسودان والهند واحدا

بها (اللورد) و (الفيكنت) يستبقان

وأكبر ظنى أن يوم جلائهم

ويـوم نشـور الخـلق مقتـرنان

وهذه القصيدة تعبر بوضوح عن فهم حافظ لمشكلة الاحتلال فى مصر.

لقد ذهب حافظ إلى السودان أثناء حملة كتشنر ثم طرد من الجيش، بعد اشتراكه فى مؤامرة ضد الإنجليز فجاء به الإنجليز إلى مـصر وطلبـوا محاكمته وإنزال العقاب به، وصدر ضده حكم الإعدام ثـم خفـف الحكـم بعزله ثم أحيل إلى الاستيداع.

وخلال ذلك كانت فى نفسه شكوى دائمة من الاحتلال وكـان شـعره سجلا للأحداث، يسجلها بدماء قلبه وأجزاء من روحه ويصوغ فيهـا أدبـا يستحث به النفوس ويدفع إلى النهضة ، وهذه القصيدة تعبر عـن شـكوى مصر والمصريين من الاحتلال:

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت حـواشيه حتـى بـات ظلما منظما

تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى وان اصـبح المصـرى حرا منعما

أعد عهد (اسماعيل) جلدا وسخرة فـإن رأيـت المـن أنـكى وآلـما

عملتم على عز الجماد وذلنا فأغليتم طينا وأرخصتم دما
إذا أخصبت أرض وأجدب أهلها فلا أطلعت نبتا ولا جادها السما
نهش إلى الدينار حتى إذا مشى به ربه للسوق ألفاه درهما
فلا تحسبوا فى وفرة المال – لم تفد متاعا ولم تعصم من الفقر – مغنما
فإن كثير المال – والخفض وارف قليل إذا حل الغلاء وخيما

وإلى جانب ذلك نجده يشبع شعبه لوما وتقريعا جارحا وينفث فى لومه وتقريعه ثورته المكبوتة ضد الإنجليز، فيقول:

أمة قد فت فى ساعدها
بغضها الأهل وحب الغربا

وفى قصيدة أخرى يقول:

وكم ذا بمصر من المضحكات كما قال فيها أبو الطيب
أمور تمر وعيش يمر ونحن من اللهو فى ملعب
وشعب يفر من الصالحات فرار السليم من الأجرب

ثم هو ينتهز كل فرصة ليودعها شعره الوطنى فهو يشبه الليل وطوله بعهد الاحتلال، البغيض فيقول:

وليل كمطل القوم كابدت طوله وأيقنت أنى لا محالة صاحبه

وتتجمع الثورة على ظلم الإنجليز فى نفس حافظ فيسير فى ركاب مصطفى كامل ويتقدم بقصائده إلى صحيفة اللواء فتنشرها وسط الإعجاب والحماس وحافظ بذلك ينتهز الأحداث ويتخذ منها مادة لهجومه ودفاعه .

وتقع حادثة "دنشواى" فيشن الغارة على الإنجليز فيلهب الشعور ، ويـذكى الحماس ويستثير الدموع:

أيهـا القائمـون بالأمـر فينـا ... هل نسيتـم ولاءنـا والـوداد
خفضـوا جيشكـم وناموا هنيئا ... وابتغوا صيـدكم وجوبوا البلادا
وإذا اعـوزتكـم ذات طـوق ... بين تـلك الربـا فصيدوا العبادا
إنمـا نحـن والحمـام سـواء ... لم تغـادر أطواقنـا الأجيـادا
لا تظنـوا بنـا العقـوق ولكن ... أرشدونـا إذا ضللنـا الرشـادا
لا تقيـدوا مـن أمـة بقتيـل ... صادت الشمس نفسه حين صادا

وقال يصف الحادثة وفظائع المحاكمة والتنفيذ فيقول:

جاء جهالنا بأمر وجئتم ... ضعـف ضعفيه قسوة واشتدادا
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو ... أقصاصـا أردتـم أم كيـادا ؟
احسنوا القتل إن ضننتم بعفو ... أنفوسـا أصبتـم أم جمـادا؟
ليت شعرى أتلك (محكمة التفتيش) ... عادت أم عهـد نيـرون عادا؟
كيف يحلو من القوى التشفى ... من ضعيـف ألقى إليـه القيادا

ويتجلى فى هذه القصيدة عنف السخرية المرة والألم المكبوت فيهـاجم المدعى العمومى والإنجليز، وقال مخاطبا المدعى العمومى فى القضية:

أيها المدعـى العمومـى مهلا ... بعض هذا فقـد بلغـت المرادا
قد ضمنـا لك القضـاء بمصر ... وضمنـا لنجـلك الإسعـادا
فإذا ما جلسـت للحـكم فاذكر ... عهد (مصر) فقد شفيت الفؤادا

ولما كان بطش الإنجليز ضد كل الأحرار قائما فقد كان يستعمل أسلوب الرمزية فى كتابته فهو يلعن الاستعمار الإنجليزى فى صورة الاستعمار الايطالى لطرابلس ويحمله النكبات التى تحيق بمصر أو بالشرق. وهو فى قصيدة دنشواى لا يهاجم الإنجليز والمدعى العام فحسب بل ينتقد المصريين رغبة منه فى إذكاء نفوسهم ضد الاحتلال فيقرع لأمة تقريعا جراحا مؤلما لاستسلامها للأجانب فيقول:

لاجرى النيل فى نواحيك يا (مصـــر) ولا جادك الحيا حيث جادا
أنت أنبت ذلك النبت يا (مصـــر) فأضحى عليك شوكا قتادا
أنت أنبت ناعقا قام بالأمـــس) فأدمى القلوب والأكبادا
أيـة يـا مـدره الـقضاء ويـا من ساد فى غفلة الزمان وشادا
أنـت جـلادنـا فـلا تـنس أنـا قد لبسنـا على يديـك الحـدادا

وهذه القصيدة تعد من أروع أشعار حافظ ، وفيها تصوير لتلك الحادثة الفظيعة التى أظهرت مدى ظلم الإنجليز ومبلغ هوان المصرى فى نظر الاحتلال.

لقد فهم حافظ سياسة الانجليز الظالمة، فيعرض لحادثة دنشواى مرة أخرى فيقول:

جلدوا ولـو منيتهـم لتعـلقوا بحبـال من شنقـوا ولم يتهيبوا
شنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا بلظى سيـاط الجالديـن ورحبوا
يتحاسدون على الممات وكأسه بين الشفـاه وطعمـه لا يعـذب
طاحـوا بأربعة فأردوا خامسا هو خير ما يـرجو العميد ويطلب

ثم يلين حافظ فى كلامه متوددا راجيا بقوله:

فاجعل شعارك رحمة ومودة إن القلوب مع المودة تكسب
وإذا سئلت عن الكنانة قل لهم هى أمة تلهو وشعب يلعب
واستبق غفلتها ونم عنها تنم فالناس أمثال الحوادث قلب

لقد كان حافظ سريع الاستجابة لأحداث عصره يسجل كل ما يجرى فيه من حوادث جسام، من الاحتلال، فكتب قصيدة يعبر فيها عن الشكوى من الاحتلال البغيض فيقول:

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت حواشيه حتى بات ظلما منظما
تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى وان اصبح المصرى حرا منعما

ويستمر حافظ فى تجسيم الشكوى قائلا :

إذا أخصبت أرض وأجدب أهلها فلا أطلعت نبتا ولا جادها السما
نهش إلى الدينار حتى إذا مشى به ربه للسوق ألفاه درهما

ويختم شكواه بالتندر والسخرية والتهكم على المحتلين فيقول:

فلا تحسبوا فى وفرة المال لم تفد متاعا ولم تعصم من الفقر مغنما
فإن كثير المال والخفض وارف قليل إذا حل الغلاء وخيما

وبعد أن تم عزل المعتمد البريطانى كرومر وخروجه من مصر نرى حافظ يكتب قصيدة يلومه على سياسته وسياسة بلاده متعرضا لما أحدثته سياسة الإنجليز فى دنشواى:

ولولا أسى فى (دنشواى) ولوعة وفاجعة أدمت قلوبا وأكبدا
ورميك شعبا بالتعصب غافلا وتصويرك الشرقى غرا مجردا

لذبنـــا أســـى يوم الوداع لأننــــا ... نرى فيك ذاك المصلح المتوددا
يناديك قد أزريت بالعلم والحجا ... ولم تبق للتعليم (يالورد) معهدا
وأنك أخصبــت البـــلاد تعمدا ... وأجدبت فى مصر العقول تعمدا
قضيت على أم اللغــات، وإنــه ... قضاء علينا أو سبيل إلى الردى
ووافيت والقطران فى ظل راية ... فما زلت بالســودان حتى تمردا

حجبت ضياء الصحف عن ظلماته ... ولم تستقــل حتى حجبــت المؤيــدا
وأودعت تقريــر الوداع معغامزا ... رأينــا جفــاء الطبــع فيها مجسدا
غمزت بهــا ديــن النبى ، وإننــا ... لنغضب إن أغضبت فى القبر أحمدا
وحاولت إعطاء الغريب مكـــانة ... تجر علينــا الويــل والــذل سرمدا
ألم يكفنـــا إنا سلبنــا ضيــاعنـا ... على حين لم نبلغ من الفطنة المدى
وزاحمنــا فى العيش كل ممارس ... خبيــر وكنــا جاهــليــن ورقــدا
وما الشركـــات السود فى كل بلدة ... سوى شــرك يلــقى به من تصيدا

ويمضى كرومر ويأتى معتمد جديد هو الدون جورست وينتهز حـــافظ الفرصة ليواجة المعتمد الجديد بالحقيقة والشكوى من المستشار الإنجليزى دنلوب بالمعارف، وأخذ يعدد المطالب الوطنية والاجتماعية ويعبــر عــن الشكوى من الاحتلال بقوله

أذيقونـــا الرجـــاء فقــد ظمئنــا ... بعهــد المصلحيــن إلى الورود
فمـــا أنـــا واقــف برســوم دار ... أسائلهـــــا ولا كلــف بــرود
ولا مستنـــزل هبــة بمـــــدح ... ولا مستــنجز حـــر الوعـــود
ولكنـــى وقفــت أنــوح نوحــا ... على قومـــى وأهتــف بالنشيــد
وأدفـــع عنهــم بشبــا يــــراع ... يصــول بكـــل قافيــة شرود

وهو إذ يعرض هذه المطالب يغمز السياسة الإنجليزية القديمة ونقائصها ويدعو إلى تمكين المصريين من إدارة شئون بلادهم .

أرى أحداثكم ملكـوا علينـا بمصـر موارد العيش الرغيد
وقد ضقنا بهم وأبيك ذرعـا وضاق بحملهـم ذرع البريـد
أكل موظف منـك قـدير على التشريـع فى ظل العميـد
فضع حدا لهم وانظـر إلينا إذا انصفنـا نظـر الـودود

وهو فى هذه القصيدة عنيف منطلق تعود به الذاكرة إلى حادثة دنشواى وكيف كانت مبعث اليقظة والحياة للحركة الوطنية فيتعرض لكرومر ومـا أحدثته حادثة دنشواى من زيادة الوعى القومى لدى المصريين فيقول:

رمانا صاحـب التقرير ظلما بكفـران العـوارف والكنـود
قتيل الشمس أورثنـا حيـاة وأيقظ هاجع القـوم الرقـود
فليت " كرومـر" قد دام فينا يطـوق بالسلاسل كـل جيـد
ويتحف مصـر آنا بعـد آن بمجلـود ومقتـول شهيـد

ثم ينطلق مدويا يتمنى البعث المصرى الجديد بقوله:

لننـزع هـذه الأكفـان عنـا ونبعـث فى العـوالم من جديد

ويختم قصيدته لافتا نظر المعتمد البريطانى جورست إلى أن المصريين قد سئموا سياسة كرومر، وهم يرجون أن يكون عهده خيرا من عهد سلفه:

أجئت تحـوطنا وتـرد عنـا وترفـعنا إلى أوج الصعـود
أم " اللورد " الذى انحى علينا أتى فى ثوب معتمـد جديـد؟

وبعد أن فرض الإنجليز الرقابة على المطبوعات وأغلقوا الصحف وملئت السجون بالأحرار ، لم يخفت صوت حافظ وانطلق ينـدد بهذا الإرهاب فيقول:

إن البليـة أن تبـاع وتشتـرى "مصـر" وما فيهـا وألا تنطقا
كانـت تواسينـا على الامنـا صحف إذا نـزل البلاء وأطبقا
فإذا دعوت الدمع فاستعصى بكت عنا أسى حتـى تغص وتشرقا
كانت لنـا يـوم الشدائـد أسهمـا نرمى بها وسوابقـا يـوم اللقا
ما لى أنوح على الصحافة جازعـا ماذا ألم بهـا ومـاذا أحـدقـا
قصوا حواشيهـا وظنـوا أنهـم أمنـوا صواعقها فكانت أصعقا
وأتوا بحاذقهـم يكيـد لهـا بمـا يثنـى عزائمهـا فكـانت أحذقا

ثم يتجه بعد ذلك بكل نفسه إلى الشباب المصريين يثير عواطفهم ويهيب بهم ان ينطلقوا فى طريق المجد والحرية مع الحذر واليقظـة والتـربص للفرص، فهو يدعوهم إلى الاتحاد وإلى العلم وهما سبيل الوصـول إلـى الحرية وإلى الحياة الكريمة:

أو كلمـا قالـوا تجمـع شملهم لعب الشقـاق يجمعنا فتفرقا
فتدفقوا حججا وحوطـوا نيلكـم فلكم أفـاض عليكم وتدفقـا
فتعلموا ، فالعلـم مفتـاح العلا لم يبق بابـا للسعـادة مغلقا
ثم استمدوا منـه كـل قواكـم إن القوى بكل أرض يتـقى

ولا يزال حافظ على هذه الشاكلة ماضيا فى طريقه يحمس الشعب ويشغل فيه جذوة الوطنية، وتواكب أشعار حافظ الأحداث التى تمـر بها

البلاد ونتيجة لفجيعة مصر بوفاة الزعيم مصطفى كامل فى العاشر من فبراير ١٩٠٨ القى حافظ ابراهيم قصيدته الرائعة فى رثاء الفقيد ، فقال:

زيـن الشباب وزين طلاب العلا   هل أنت بالمهج الحزينة دارى
أيا قبر هذا الضيف آمال آمة   فبكر وهلل والق ضيفك جاثيا
عزيز علينا أن نرى فيك (مصطفى)   شهيد العلا فى زهرة العمر ذاويا
أيا قبر لو انا فقدناه وحده   لكان التأسى من جوى الحزن شافيا
ولكن فقدنا كل شئ بفقده   وهيهات أن يأتى به الدهر ثانيا
فيا سائلى أين المروءة والوفا   وأين الحجا والرأى ؟ ويحك هاهيا
هنيئا لهم فليأمنوا كل صائح   فقد أسكت الصوت الذى كان عاليا
ومات الذى أحيا الشعور وساقه   إلى المجد فاستحيا النفوس البواليا
مدحتك لما كنت حيا فلم اجد   وإنى أجيد اليوم فيك المراثيا
عليك، وألا ما لذا الحزن شاملا   وفيك، وإلا ما لذا الشعب باكيا
يموت المداوى للنفوس ولا يرى   لما فيه من داء النفوس مداويا
وكنا نياما حينما كنت ساهدا   فأسهدتنا حزنا وأمسيت غافيا
شهيد العلا ، لا زال صوتك بيننا   يرى كما قد كان بالأمس داويا
يهيب بنا: هذا بناء أقمته   فلا تهدموا بالله ما كنت بانيا
يصيح بنا : لا تشعروا الناس أننى   قضيت وان الحى قد بات خاليا
يناشدنا بالله ألا تفرقوا   وكونوا رجالا لا تسروا الأعاديا
فروحى من هذه المقام مطلة   تشارفكم عنى وإن كنت باليا
فلا تحزنوها بالخلاف فإننى   أخاف عليكم فى الخلاف الدواهيا
أجل، أيها الداعى إلى الخير إننا   على العهد مادمنا فنم أنت هانيا

بناؤك محفـوظ، وطيفـك مـاثل وصوتك مسموع ، وإن كنت نائيـا
عهدنـاك لا تبكى وتنكـر أن يرى أخو البأس فى بعض المواطن باكيا
فرخص لنـا اليوم البكاء وفى غـد ترانا كما تهـوى جبـالا رواسيـا
فيا نيـل إن لم تجـر بعـد وفـاته دما أحمـرا لا كنت يا نيـل جاريا
ويا (مصر) إن لم تحفظى ذكر عهده إلى الحشر لا زال انحـلالك باقيـا
ويا أهل مصر ان جهلتم مصابكـم ثقوا ان نجم السعد قـد غار هوايـا

وعندما أعلن الإنجليز الحماية على مصر سنة ١٩١٤ وقـاموا بعـزل الخديوى عباس الثانى يتكلم حافظ عن لسان مصر وبلسانها مطالبا بالحرية فاضحا سياسة المماطلة والوعود فيقول مخاطبا المعتمد البريطانى:

ودع الوعـــود فـإنهـــا فيمـا مضى كانت رواية
أضحت ربوع النيل سلطنة وقد كانـت ولايــــة
نــرجـو حيـــاة حـــرة مضمونــة فى ظل رايــة
ونــــروم تعليمــا يكــون له من الفوضـى وقايــة
ونــود ألا تسمعــوا فينــا السعايــة والوشـأيـــة

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، ولم يـستجب الإنجليـز لمطالـب المصريين فى الاستقلال يثور المصريون لكرامتهم المهدرة فتقوم ثورة عام ١٩١٩ عقب اعتقال سعد زغلول وصحبه الذى كان بمثابة الشرارة التـى أشعلت النار فى وجه المحتلين ووحدت صفوف المصريين ضد الإنجليز ، فيهب الشعب رجالا ونساء، فتشارك المرأة المصرية الرجال فى الثـورة ، وتعلن عن مساهمتها فيها، يقوم حافظ ابراهيم بايصال صوته إلى النـاس، فيحي مظاهرة السيدات بقصيدة رائعة مجد فيها شجاعتهن وحمـل حملـة

لاذعة على مسلك الجنود الإنجليز حيالهن كما بارك ثـورة ١٩١٩ ونـدد بهجوم الجنود الإنجليز المسلحين على المظاهرة التى اجتـازت شـوارع القاهرة متجهة صوب بيت الأمة فقال:

خـرج الغوانى يحتججن ... ورحـت أرقب جمعهنه
فـإذا بهـن تخـذن من ... سود الثيـاب شعـارهنه
فطلعـن مثـل كواكـب ... يسطعن فى وسط الدجنة
وأخذن يجتـزن الطريق ... ودار (سعد) قصدهنـه
يمشين فى كنـف الوقار ... وقد أبـن شعـورهنـه
وإذا بجيـش مقبـل ... والخيـل مطلقـة الأعنه
وإذا الجنـود سيوفهـا ... قد صـوبت لنـحورهنه
وإذا المدافـع والبنـادق ... والصـوارم والأسنـة
والخيـل والفرسـان قد ... ضربـت نطاقا حولهنه
والورد والريحـان فـى ... ذاك النهـار سلاحهنـه
فتطاحن الجيشان ساعـات ... تشيـب لهـا الأجنـة
فتضعضـع النسـوان ... والنسـوان ليس لهن منه
ثم انهـزمن مشتتـات ... الشمـل نحـو قصورهنه

ويتهكم حافظ فى سخرية مرة بالإنجليز، ويـذكرهم بهـزيمتهم أمـام الألمان، ويهنئهم بالانتصار على النساء فيقول:

فليهنـأ الجيـش الفخـور ... بنصـره وبكسـرهنـه
فكأنمـا الألمـان قـد ... لبسـوا البراقـع بينهنـه

وأتـــوا (بهنـــد نبـــرج) مختفيـــا بمصـــر يقودهنــــه

فـــلذاك خافـــوا بأسهــــــن واشفقـــــــوا من كيـــدهنـــه

لقد هزت ثورة ١٩١٩ حافظ ابراهيم وأثارت عواطفه هزا عنيفا حتـى ملكت عليه كل عواطفه. وتحولت أشعاره إلى قصيدة ثائرة تلعن الإنجليـز وتعلن كلمة مصر، وتخط سطور العزة المصرية الثـائرة بحـروف مـن دمائها الزكية. فكتب قصيدة رائعة يتحدث بلسان مصر، ويتغنـى بوطنـه وأمجاده ومآثره وحضارته القديمة. كما يتحدث على لسان مصر إلى بنيها حيث تطلب إليهم رفع بنيانها على العلم والأخلاق. وأن يتواصـوا بالجـد والصبر فقال:

وارفعوا دولتى على العلم والأخلاق فالعلـم وحـده ليـس يجـدى

وتواصوا بالصبر، فالصبر إن فارق قـومـا فمـا لـه مـن مسد

خلـق الصبر وحده نصر القـوم وأغنـى عـن اختـراع وعـد

إن فى الغرب أعينـا راصـدات كحلتهـا الأطمـاع فيكـم بسهد

فاتقوها بجنـة من وئـــــام غير رث العـرا وسعـى وكـد

واصفحوا عن هنات من كان منكم رب هـاف هفا على غير عمـد

إننا عند فجـر ليل طويـــــل قـد قطعنـاه بين سهـد ووجـد

غمرتنـا سـود الأهاويـل فيـه والأمـانى بين جـزر ومـــد

وتجـلى ضيـاؤه بعـــــد لأى وهـو رمـز لعهـدى المستـرد

فاستبينوا قصـد السبيـل وجدوا فالمعـالى مخطـوبـة للمجـد

وتضطر بريطانيا إلى إعلان تصريح ٢٨ فبرايـر سـنة ١٩٢٢ مـن طرف واحد وتصبح مصر دولة مستقلة ذات سيادة عدا التحفظات الأربعة

التى لم يرض عنها سعد وعارضها المصريون من ورائه يقف حافظ حائرا بين النظرات الحزبية والمواقف المتضاربة فيقول:

ما لــى أرى الأكمـام لا تفتـح والروض لا يذكـــو ولا ينفح
والطيـر لا تهلـو بتـنويمـها فى ملكها الواسع أو تصـدح
والنيـل لا ترقـص أمـواجهه فرحى ولا يجرى بها الأبطـح
والشمـس لا تشـرق وضـاءة تجلو هموم الصـدر أو تنـزح
والبـدر لا يبـدو عـلى ثغـره من بسمـات اليمن ما يشـرح
والنجـم لا يـزهـر فى أفقـه كأنـه فى غمـرة يسبــح
ألـم يجنهـا نبـأ جاءنـا بـأن مصـرا حـرة تمـرح؟
أصبحـت لا أدرى على خبـرة أجـدت الأيـام أم تمـزح؟
أمـوقـف للجـد نجتـازه أم ذاك للأهـى بنـا مسـرح؟
ألمـح لاستقـلالنـا لمعـة فى جـالك الشـك فأستـروح
وتطمـس الظلمـة آثـارهـا فأنثنـى أنكـر ما ألمــح
قد حـارت الأفهام فى أمرهم إن لمـحوا بالقصد أو صرحوا
فقائـل لا تعجلـوا إنـكم مكانـكم بالأمـس لم تبـرحوا
وقائـل أوسـع بهـا خطـوة وراءهـا الغايـة والمطمـح
وقائـل أسـرف فى قـوله : هذا هو استقلالكـم فافرحـوا
إن تسألوا العقل يقل عـاهدوا واستوثقوا فى عهدكـم تربحـوا
وأسسـوا دارا لنـوابكـم للرأى فيهـا والحجـا أفسحـوا
ولتذكـر الأمـة ميثـاقهـا ألا تـرى عزتهـا تجـرج
وتنتخـب صفـوة أبنائهـا فمنهـم المخلـص والمصلـح

وليتـــق الله أولـــو أمرهــــــا أن يسكنوا الأصوات أو يفرحوا
أو تســألوا القلب يقل حاذروا وصابـــروا أعداءكــم تفلحـــوا
إنى أرى قيـــدا فـــلا تسلموا أيديكــم فالقيــــد لا يسجــــح
إن هيـأوه من حـــرير لكـــم فهـــو على ليـــن بـــه أفـــدح
حتـــام- والصبـــر لـــه غايـــة لغيرنــــا من بئرنــــا نمتــــح؟
حتـــام - والأمـــوال مشفوهـــة نمنـــح إلا (مصر) ما نمنـــح؟
حتـــام يمضـــى أمرنـــا غيرنـــا وذاك بالأحـــــرار لا يملـــــح؟
أساء بعض النـــاس فى بعضهـــم ظنـــا وقـــد أمسوا وقد أصبحوا
فانتهـــزت أعداؤنـــــا نهـــزة فينـــا وما كانـــت لهـــم تسنـــح
فالرأى كـــل الرأى ان تجمعـــوا فإنمـــــا إجمـــــاعكـــم أرجـــح
وكل من يطـــمع فى صـــدعكـــم فـــإنـــه فى صخـــرة ينـــطـــح
أخشـــى إذا استكـــثـــرتم بينـــكم من قـــادة الآراء أن تفـــضحوا
فلتقصـــدوا ما اسطـــعتـــم فيـــهم فـــإنمـــا فى القـــلة المنـــجـــح

فحافظ هنا يصف موقف المصريين من هذا التصريح عنـــد صـــدوره. واستطاع أن يقف موقف المحايد من الأحزاب، فهو لم يقف جهارا مع سعد زغلول، ولكنه أخذ يعرض الآراء منسوبة إلى أصحابها حتى لا يوصـــف بالانحياز لطرف دون آخر، ومع ذلك ففى قصيدته التى رثـــى بهـــا عبـــد الخالق ثروت نجده يبين رأيه فى تصريح ٢٨ فبراير ويشيد بدور ثـــروت وحصوله على التصريح ويلتمس له العذر فى عدم تمكنه مـــن الحـــصول على الاستقلال الكامل فقول:

وأتى بأقصى ما ينال مفاوض يسعى بغير كتائب وحـــراب

واسئل من أشداق آساد الشرى	علما عضضن عليه بالأنياب
إن فاته بعض الأمانى فاذكروا	أنا أمام محنكيـــن صـــلاب
رجل يفاوض وحده عن أمـــة	إن لم يفز فوزا فليـــس بعاب

وبعد تصريح ٢٨ فبراير الذى تضمن إنهاء الحمايـــة البريطانيـــة والاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة محدودة يشعر حافظ ابـــراهيم بالتفاؤل والغبطة، ويستقبل هذا العهد الجديد بقصيدة يقول فيها:

أشرق فدتك مشـــارق الإصبـــاح	وأمط لثامك عن نهار ضاحى
بوركت يا يوم الخلاص، ولا ونت	عنـــك السعود بغدوة ورواح
بالله كن يمنا وكـــن بشـــرى لنـــا	فى رد مغتـــرب وفك سراح

وحافظ فى سعادته بعيد الاستقلال وفرحه به يرى من واجبه أن يسوق التهنئة إلى مصر :

فاليوم قرى يا كنانة واهـــدئـــى	حـــرم الكنانـــة لـــم يكن بمباح
من ذا يغير على الأسود بغـــابها	أو من يعود بمسبـــح التمســـاح

ويعرب حافظ عن أمله فى استقلال السودان فيشيد بوحدة وادى النيـــل فيقول:

للنيل مجد فى الزمـــان مؤثـــل	من عهد (آمون) وعهد (فتاح)
فسل العصور به وســـل آثـــاره	فى (مصر) كم شهدت من السياح

وبعد ذلك ينادى بوحدة مصر والسودان فيقول:

يا صاحب القطرين غير مدافع — ما مثل ساحك فى العلا من ساح
لك مصر والسودان والنهر الذى — يختـــال بين ربا وبيـــن بطـــاح

ثم يعبر عن إيمانه بالحكم النيابى واعلان الدستور الـــذى كـــان أمـــلا يداعب الأمة وأصبح حقيقة بعـــد أن تألفـــت لجنـــة الدســتور وتلاحقــت المؤامرات والتدابير للعبث به وتأخير صدوره فيقول:

البرلمـــان تهيـــأت أسبـــابـــه — لم يبق من سبب سوى المفتاح
هو فـــى يديـــك وديعة لرعية — تثنـــى بألسنـــة عليـــك فصاح

كما يردد حافظ أهمية مبدأ وحدة وادى النيل مناديا بأن النيل لأهله:

النيـــل منبعه لنـــا ومصبـــه — ما إن له عن أرضهـــا تحويل
وثقت بك الثقة التى لم ينفرج — للريب فيها والشكـــوك سبيـــل

ويحاول حافظ أن يقف على الحياد أمام حزب الوفـــد بريـاســـة ســـعد زغلول، وحزب الأحرار الدستوريين برئاسة عدلى يكن. حتى يتولى الحكم اسماعيل صدقى ويحكم مصر بالحديد والنار. ويسانده فى استبداده الإنجليز الذين يزعمون أنهم يقفون على الحياد، وهم فى الحقيقة قـــد جعلـــوا منـــه دكتاتورا يتحكم فى رقاب المـــصريين، فيقـــوم بالغـــاء دســـتور ١٩٢٣، واستبداله بدستور ١٩٣٠ فينظم حافظ قصيدة يندد فيها بالإنجليز وحيادهم:

قد مر عام يا سعـــاد وعـــام — وابن الكنانة فى حماه يضـــام
قل للمحايد هل شهدت دماءنا — تجرى وهل بعد الدماء سلام؟

سفكت مودتنــا لكم وبدالنــا أن الحياد على الخصــام لثام

إن المراجل شرها لا يتقــى حتى ينفس كربهــن صمــام

لم يبق فينا من يمنى نفســه بــودادكــم فــودادك أحــلام

أمن السياسة والمروءة أننــا نشقى بكم فى أرضنا ونضام؟

إنا جمعنا للجهــاد صفوفنــا سنموت أو نحيا ونحن كــرام

ولما ازداد بطش صدقى وحكومته بالبلاد هاجم حافظ سياسته وانطلــق فإذا به مارد جبار، يخرج من قمقمه متوعدا صدقى بسوء المصير وكأنما تجسمت آلام الشعب كلها فى فؤاده ، فتحول شعره إلى أسهم يقــذف بهــا صدقى وأعوانه، كما بدأ يستحث النفوس لعودة دستور ١٩٢٣ مبلورا فــى شعره آمال أمته. وبجانب اهتمام حافظ بقضايا وطنه مصر فقد كــان فــى كثير من الأحيان يدافع عن الوحدة العربية والوحدة الاسلامية، وعن علاقة الشوام بمصر ويجعل حافظ أساس الدعوة إلى الوحدة أساسا حضاريا ثقافيا متمثلا فى الأمانى والآمال. ولا يقصره على الوحدة الدينيــة أو الجنــسية "فالوحدة فى نظره تضم الشرقيين على اختلاف أديانهم ومــذاهبهم فهــى (شرقية) بعيدة المدى فيتوجه إلى مطران الشام قائلا:

"مســرة " الشــام ! إنــا إخوانكــم مــا حيينــا

ثقــــوا فإنــــا وثقنــــا بكــم وجئنــا قطينــا

إنا نــرى فيــك "عيسى " يدعــو إلى الخير فينا

قربــت بيـــن قلـــوب قد أوشكــت أن تبينــا

فأنــت فخــر النصــارى وصاحــب المسلمينــا

ونجد هذا التأكيد فى المساواة بين الأديان والتسامح فيما بينها فى قصائده المختلفة كقوله فى قصيدته التى يمدح فيها السلطان عبد الحميد:

يرعى لموسى والمسيح واحمد   حق الولاء وحرمة الأديان

فخذوا الموثق والعهود على هدى   التوارة والانجيل والفرقان

وقوله فى قصيدة أخرى:

تحالف فى ظل الهلال إمامه   وحاخامه بعد الخلاف وراهبه

وإن كان حافظ قد وسع دائرة الوحدة متجاورا عن الأسس الدينية والجنسية، فإنه قد أسرف إسرافا بعيدا فى مدى هذه الوحدة. وذلك حين حاول أن يضم فى هذه الوحدة الشرق الأقصى إلى جانب المشرق العربى. فقد جرى فى شعره ذكر الصين واليابان فى أكثر من قصيدة. وقد تمنى فى مواضع مختلفة من شعره أن ينتظم الشرق الأقصى فى وحدة وثيقة مع الشرق العربى ومن ذلك قوله:

متى أرى الشرق أدناه وأبعده   عن مطمع الغرب فيه غير وسنان

تجرى المودة فى أعراقه طلقا   كجرية الماء فى أثناء أفغان

لا فرق بين بوذى يعيش به   ومسلم ويهودى ونصرانى

وعندما قامت الحرب بين روسيا واليابان عام ١٩٠٦ نجد حافظ يقف بجانب اليابان، لأنها دولة شرقية ناهضة، ولأنها تحارب روسيا العدو التقليدى لتركيا. ولقد أثارت هذه الحرب عواطف حافظ الشعرية فنظم قصيدته المشهورة التى مطلعها:

لا تلم كفى إذا السيف نبا   صح منى العزم والدهر أبى

وفيها يمدح إمبراطور اليابان موضحا وطنية الشعب اليابـــانى وفهمـــه الناضج للوطنية وعزمه على محاربة أعداء بلاده فيقول:

هكذا " الميكاد" قد علمنا   أن نـــرى الأوطـــان أمـــا وأبـــا

وهو إذ يعجب كيف تمكنت اليابان الدولة الشرقية الـــصاعدة مـــن أن تصبح فى مصاف الدول الغربية المتحضرة يرد هذا إلى همة الامبراطور اليابانى فيقول:

مـــلك يـــكفيك مـــنه أنـــه   أنهـــض الشـــرق فهـــز المغربا

ويستشعر فى انتصار اليابان على روسيا عزة الشرقيين السليبة التـــى أعادها لهم أصحاب الجنس الأصفر من اليابانيين:

تسوغنا الحرب وإن أصبحت   تدعو رجال الشرق أن يفخروا
أتى على الشـــرقى حـــين إذا   ما ذكـــر الأحيـــاء لا يذكـــــر
حـــتى أعاد " الصفر " أيـــامه   فانتصـــف الأســـود والأسمـــر

وعلى كل حال فإن الشرق العربى شعر بهزة وطنية بانتصار اليابـــان لانتسابها إلى الأمم الشرقية الناهضة، وكان يتخذ من هذا دعامة حضارية يتمنى أن يرى الشرق العربى كله يذخر بأمثلتها ، فهو دائما ينعـــى عليـــه تأخره ويهيب به أن يسترد مجده وعظمته.

ونستطيع أن نقول إن دعوة حافظ إلى الجامعة الشرقية هى دعوة عملية بناءة أكثر منها دعوة قائمة على بعث المجد الغابر وترديد النغمات الجوفاء بالمجد الخالد.

ونراه يتمنى ان يلحق الشرق بالغرب فيقول:

وسوف تقضى عليهم ... طبائع العمران
فيصبح الشرق غربا ... ويستوى الحافقان

وهو لا يزال يرسم للشرق المنهج القويم للنهوض كما كان يفعل مع أبناء وطنه مصر فى صراحة وجرأة. دون أن يكون متعصبا لشرقيته تعصبا أعمى، ولكنه تعصب واع، وهذا نتيجة إيمانه بالتطور الاجتماعى وما تقضى به طبائع العمران.

فالدعوة الشرقية عند حافظ كان أساسها العمل الجدى فى سبيل الرقى حتى يصل الشرق إلى مدنية الغرب فى العلم والاختراع، وحول ذلك يقول:

تمشى الشعوب لقصدها ... قدما وشعب النيل آخر
كم فى الكنانة من فتى ... ندب وكم فى الشأم قادر
هذا يطير مع الخيال ... وذاك يرتجل النوادر
جهلوا الحياة وما الحياة ... لغير كداح معامر
يجتاب أجواز القفار ... ويمتطى متن الزواجر

ويهمنا أن نلحظ أمرا هاما، وهو أن حافظا لم تبعث به وبعاطفته القومية هذه الوحدة الشرقية المتسعة ولا تلك الوحدة العربية الضيقة، إذ أنه لا زال

يشيد بمصر وهذا طبيعى لأنه جعل مصر معقد الأمانى القوميـــة العربيـــة وأنها ذات المكانة الممتازة فى قلوب العرب. فكم صرح أنها زعيمة الشرق وكم عبر على لسانها بهذه الزعامة فى قصيدة بعنوان (مصر فوق الجميع) أنشدتها كوكب الشرق ام كلثوم:

وقف الخلــق ينظــرون جميعا   كيف أبنى قواعد المجد وحــدى
أنا تاج العلاء فى مفرق الشرق   ودراتـــه فرائـــد عقـــدى
أنـــا إن قـــدر الإلـــه مماتـــى   لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى
ما رمانـــى رام وراح سليمـــا   مـــن قـــديـــم عناية الله جنـــدى

فرغم مصرية حافظ الواضحة فإنه لم يقتــصر علـــى مـــصريته المحدودة، وإنما كان يرى الإخاء القائم بين الـــشعوب العربيـــة بوجدانـــه ويعتنقه بإيمانه.

وعبر عن هذا الشعور فى مواضع عدة لعل من أقواها ما جاء فى قصيدته التى حيا فيها الشام فى حفل تكريمه:

لى موطن فى ربوع النيل أعظمه   ولى هنافى حما كم موطن ثانى
إنى رأيت على أهـــرامها حـــللا   من الجـــلال أراها فوق "لبنان"

ولا يجد فى أدباء العروبة من البلدان المختلفة إلا أخوة للمصريين فـــى ربوع النيل:

كم فى نواحى ربوع النيل من طرف   (لليازجى) و(صروف) و (زيدان)
وكم لأحيائهم فى الصحف من أثر   له (المقطم) و (الأهرام) ركنان

وحافظ يعد بهذه القصيدة إماما لدعاة القومية العربية بمفهومها الحديث، ثم هو يرى فى تفرق الوطن العربى وتمزقه قضاء تاما على ما نتمناه من وحدة تجمع شملنا فيحذر عاقبة الشقاق:

إن دام ما نحـــن فيــه من مدابــرة   وفتنـــة بين أجنـــاس وأديـــان
رأيت رأى (المعرى) حين أرهقــه   ماحل بالناس من بغى وعدوان
لا تطهر الأرض من رجس ومن درن   حتى يعاودها (نوح) بطوفان

فحافظ قد خرج عن نطاق قومية مصرية ضيقة إلـى رحـاب قوميـة عربية فسيحة تضم أبناء شعب واحد، بل بين أفراد أسرة واحدة، فقد صور حافظ هذا المعنى فى قصيدته التى أنشدها فى حفل اقـيم لتكـريم بعـض السوريين فى فندق شبرد سنة ١٩٠٨ وافتتحهـا بهـذا المطلـع البـارع الصادق:

لمصر أم لربوع الشام تنتسـب   هنا العلا وهناك المجد والحسب
ركنان للشرق لا زالت ربوعهما   قلب الهلال عليها خافق يجـب

وهو يؤكد أن الوطن العربى جسد واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى:

إذا ألمت بوادى النيـل نـازلة   باتت لها راسيات الشام تضطرب
وإن دعانى ثرى الأهرام ذو ألم   أجابــه فى ذرا لبنـان منتحـب

كما يقول فى قصيدة أخرى:

هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم   فصافحوها تصافح نفسها العرب
فما الكنانة إلا الشأم عـاج علـى   ربوعهـا من بنيهـا سادة نجب

ولما أحس حافظ برغبة بعض المغرضين إلى هجر اللغة العربية الفصحى واستبدال العامية بها . وتزعم هذه الدعوة للعامية رجال أمثال شبلى شميل ووليم ويلكوكس وغيره من بعض النفعيين الذين عاونوهم وكادت دعوتهم تنجح لولا جهاد حماة اللغة وعلى رأسهم حافظ ابراهيم الذى كان شديد التعلق باللغة الفصحى ومن أكبر أنصارها، فدافع عن العربية الفصحى بروح لا يتخللها الملل، وكان له اليد الطولى فى إيقاظ الرأى العام ، وكانت أفكاره امتدادا لما نادى به الأفغانى وعبد الله النديم بالاهتمام باللغة العربية فبين محاسن اللغة العربية وأظهر مزاياها ودعا إلى انهاضها بقوله:

أيطر بكم من جانب الغرب ناعب ينادى بوأدى فى ربيع حياتى

ويستمر حافظ فى هذه القصيدة مشيرا إلى ثراء اللغة العربية رغم ما يرميها أبناؤها به من القصور عن استيعاب الحضارة ومظاهرها وأدواتها. ويمضى فى تقريع أهلها ولوم أبنائها الذين زهدوا فيها والقصيدة كلها تدل دلالة قوية على اعتبار حافظ للغة العربية انها أداة الوحدة العربية الفعالة وعروتها الوثقى لأن انقطاع الصلة بيننا وبين هذه اللغة اشبه بتجريد المصريين من الذاكرة.

هذا هو حافظ الشاعر صاحب النزعات الوطنية والقومية والمنصف للحقائق التاريخية والذى كان فى شعره أمثلة متعددة للدفاع عن مصر والشرق بأجمعه، كما كان معينا لا ينضب من الكفاح الوطنى، وكان حبه للوطن يملك عليه شغاف قلبه مما جعل قصائده أشبه بالأغانى والتغاريد.

الفصل الثالث

حافظ إبراهيم شاعر مصر الاجتماعى

يتميز شاعر النيل حافظ إبراهيم عن غيره من شعراء عصره بأنه عرف كيف يساير عواطف أبناء وطنه، فضرب على الوتر الحساس، وبلغ من نفس الشعب المصرى كل مظاهر الحب والتقدير والإجلال. لقد نشأ حافظ يتيما فقيرا كما نشأ كثير من الأفذاذ والعباقرة، وأحاطت بحياته كل الظروف الصعبة، وساير أخلاق المصريين وعاداتهم وآدابهم فأضحكهم وأبكاهم خلال نقده لحياتهم الاجتماعية والسياسية بأسلوبه اللاذع من خلال شعره الاجتماعى فكان جريئا فى مواجهة مواطنيه صريحا فى الجهر بذلك فصور روح الشعب الموجع الحزين ومشاكله الاجتماعية فى أسى ودهشة.

وإلى جانب ذلك فقد كان شاعرا مدافعا عن وطنه، داعيا إلى إصلاحه ورفعة شأنه بطريقة أجاد فيها وصف أحوال بلاده إجادة الرسام الماهر ولا غرو فقد تتلمذ على يد "الشيخ محمد عبده" وتأثر بأفكار " قاسم أمين" و"سعد زغلول" و "البارودى" وغيرهم، فكانت لكتاباته إلى جانب أشعاره مجموعات من الكلمات فيها التعريض اللازم والسخرية البالغة التى يرسلها كما يرسل كاتب قصائد المدح إلى ممدوحه وهى فى الوقت نفسه ذم وانتقاص وقد وصف ذلك فى أشعاره كما وصفه فى كتابه "ليالى سطيح" الذى كتبه بعد وفاة صديقه الشيخ محمد عبده ووصف فيه ما يجول بخاطره من هموم وأشجان وتحدث عما يدور فى الحياة المصرية متعرضا لأخلاق الناس وغفلتهم عن مصالحهم وإهمالهم لحقوق وطنهم، وعن ضرورة

استثارة الهمم فى نفوسهم، واستفزاز هذه النفوس لتهذيبهم وإصلاحهم. والجدير بالذكر أن حافظ ابراهيم لم يكن شاعر مصر وحدها بل كان شاعر العربية قاطبة على الرغم من لقب "شاعر النيل" الذى أطلقه عليه بعض الأدباء والصحفيين.

لقد استغرق شعر حافظ الاجتماعى معظم ما كتبه فى ديوانه فقد أمضى حياته ينظم فيه بعد اتصاله بقادة الفكر كالإمام محمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول وقاسم أمين وغيرهم وكان حافظ يردد دائما أن هؤلاء المفكرين قالوا له إذا نظمت فانظم مثل هذا الشعر الاجتماعى. ولذلك كان متفردا بهذه الطريقة. وكان يقول دائما ان الشاعر الذى لا ينظم فى الاجتماعيات ليس عندى بشاعر.

لذلك كان يجلس مع هؤلاء المفكرين وغيرهم ويقتبس منهم الأفكار فيبنى عليها ويدخلها فى شعره.

وبالرغم من المشاكل الاجتماعية التى عرضها حافظ فى شعره مرتبطة بزمنه إلا أنها تكاد تكون مشاكل دائمة ما زلنا نعانى منها بشكل أو بآخر، فهى متصلة بنفوسنا وجدناها أمامنا ووجدنا الشعر الذى يتحدث عنها وكأنه وضع لزماننا.

فإذا تعرضنا للقصائد الاجتماعية عند حافظ، نجدها تتسع لتشمل كل عيوب المجتمع التى كان يسعد المحتلين انتشارها فى جسد المجتمع المصرى، حتى يبقى دائما مجتمعا متخاذلا ومتواكلا ومحتاجا للغير. فإذا وقفنا عند قصيدته على لسان اللغة العربية التى نشرها فى سنة ١٩٠٣ نجد ان الذى دفعه إليها ما رآه من عمل المستعمرين على إماته اللغة العربية

وبعث اللغة الانجليزية حتى يفصلوا مصر عن غيرها من البلاد العربيـــة. وقد ثار حافظ منددا بهذه السياسة ممتدحا اللغة العربيـــة الفـــصحى لغـــة القرآن. وأخذ يحمس المصريين ويدفعهم إلى الوقوف فى وجه الداعين إلى هذه الغاية ويحذرهم من آثار الفرنجة الجارفة التى أصابت البلاد.

لقد فهم حافظ تماما أن هجر اللغة العربية لا يقصد منه إلا كسر شوكة القومية، وإحلال الإنجليزية محل العربية حتى لا يصبح لنا تراث ثقـــافى نعتز به، وتأوى إليه نفوسنا. لذلك كتب هذه القصيدة التى يبرز فيها علـــى لسان اللغة العربية سخريتها واستهجانها لما يقوم به بعـــض أبنائهـــا مـــن هجرها والالتجاء إلى اللغات الأجنبية الوافدة فيقول:

رجعت لنفســـى فاتهمت حصـــاتى ... وناديت قومى فاحتسبت حياتى
رمونى بعقـــم فى الشباب وليتنـــى ... عقمت فلم أجـــزع لقول عداتى
ولـــدت ولمـــا لم أجـــد لعرائســـى ... رجالا وأكفـــاء وأدت بنـــاتـــى
وسعـــت كتـــاب الله لفظا وغايـــة ... وما ضقت عن أى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيـــق أسماء لمخترعـــات
أنا البحـــر فى أحشائه الدر كامن ... فهل سالوا الغواص عن صدفاتى
فيا ويحكـــم أبلى وتبلى محـــاسنى ... ومنكم وإن عـــز الدواء أساتى
فلا تـــكـــلونـــى للزمـــان فإننـــى ... أخاف عليـــكم ان تحين وفاتى
أرى لرجال الغرب عزا ومنعـــة ... وكم عـــز أقـــوام بعز لغـــات
أتوا أهـــلهم بالمعجـــزات تفننـــا ... فيا ليتكـــم تأتـــون بالكلمـــات
أيطربكم من جانب الغرب ناعب ... ينادى بوأدى فى ربيع حياتـــى
ولو تزجرون الطير يوما عملتم ... بما تحته من عثـــرة وشتـــات

سقى الله فى بطن الجزيرة أعظما يعز عليها أن تلين قناتـــى
حفظن ودادى فى البلى وحفظتـــه لهن بقلب دائم الحســـــرات
وفاخرت اهل الغرب والشرق مطرق حياء بتلك الأعظم النخـــرات
أرى كل يوم بالجرائد مزلقا من القبر يدنينى بغيـــر أنـــاة
واسمع للكتاب فى مصر ضجة فأعلـــم أن الصائحين نعـــاتى
أيهجرنى قومى- عفا الله عنهم إلى لغـــة لم تتصـــل بـــرواة
سرت لوثة الأفرنج فيها سرى لعاب الأفاعى فى مسيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة مشكلة الألوان ومختـــلفـــات
إلى معشر الكتاب والجمع حافل بسطت رجائى بعد بسط شكاتى
فإما حياة تبعث الميت فى البلى وتنبت فى تلك الرموس رفاتى
وإما ممات لا قيامة بعده ممات لعمرى لم يقس بممـــات

واستمر حافظ يدافع عن اللغة العربية ويطالب المصريين التمسك بهـــا لدرجة ان أمير الشعراء احمد شوقى قال عنه:

يا حافظ الفصحى وحارس مجدها وأمام من نجلـــت من البلغـــاء
مازلت تهتـــف بالقديـــم وفضـــله حتى حميـــت أمانـــة القدمـــاء
خلفـــت فى الدنيـــا بيانـــا خالـــدا وتركـــت أجيـــالا من الأبنـــاء
وغدا سيذكـــرك الزمان ولم يزل للدهر إنصـــاف وحسن جزاء

ويستمر حافظ فى الدفاع عن أهل وطنه وتراثهم ومقدســـاتهم فيتوجـــه بقصيدة إلى سعد زغلول ناظر المعارف آنذاك، وينعـــى علـــى الحكومـــة إغفالها التعليم وأخذها برأى المستشار البريطانى " دنلوب"

قد قـــام بينهـــم وبيـــن العلم ضيـــق الحــــال سدا
فاردد لنـــا عهد الإمام وكن بنـــا الرجل المفـــدى

ثم يكشف السر فى هذا التخلف ويرده إلى رغبة الاحتلال فـــى تخلفنـــا ولكنه لا يلوم الاحتلال بل يلوم الحكومة الموالية للاحتلال :

أنـــا لا ألــــوم المستشـــــار إذا تــــعلل أو تصدى
فسبيـــــله أن يستبـــــــد وشـــأننـــا أن نستعـــدا
هى سنــــة المحتـــــل فى كل العصور وما تعدى

ويستمر حافظ فى ترقب الأحداث الاجتماعية ليتخذها مادة يصل عــن طريقها إلى إظهار العيوب التى تنهش جسم المجتمع المصرى فقد قامــت فى مصر ضجة حول أغرب قصة زواج فى تاريخ مصر والتى أحـــدثت زلزالا هائلا فى كيان الشعب المصرى وأثـــارت زوبعـــة أثارهـــا زواج الصحفى الشيخ على يوسف صاحب المؤيد فى عام ١٩٠٤ من ابنة الشيخ عبد الخالق السادات شيخ السادة الوفائية. على غير رغبة الأخيــر بــسبب مستوى الزوج الذى لا يؤهله لهذا الزواج. وحدث ان عقد العقد دون علــم الأب. فرفع والد الزوجة الأمر إلى المحكمة الشرعية طالبا فسخ العقد لعدم الكفاءة فى النسب بين الزوجين فكيف يتزوج جورنا لجى من بيت حـــسب ونسب ومع أن الشيخ على يوسف أثبت شرف نسبه، فان الأهواء السياسية لعبت فى قضية الزوجية دورا هاما شغل الرأى العام والصحافة والشعراء فقد ساند الخديوى عباس الثانى على يوسف بينما وقف مـــصطفى كامــل ضده فى ذلك الحادث وقد نظم حافظ قصيدة ينعى فيها علـــى المـــصريين وجمودهم ، واستمساكهم بالتقاليد، وما هم عليه من فوضـــى فـــى الــــرأى

بأسلوب يحمل منابع الحسرة فى نفسه بشكل خرج عن المألوف وبنقد لاذع. فيتحدث عن هذه القضية ويبدأ قصيدته عاتبا على مصر ومنتقدا لحياة المصريين الاجتماعية فيقول:

وحطمت اليراع فلا تعجبى … وعفت البيان فلا تعتبى
فما أنت يا مصر دار الأديب … ولا أنت بالبلد الطيب
وكم فيك يا مصر من كاتب … أقال اليراع ولم يكتب
فلا تعذلينى لهذا السكوت … فقد ضاق بى منك ما ضاق بى
أيعجبنى منك يوم الوفاق … سكوت الجماد ولعب الصبى؟
وكم غضب الناس من قبلنا … لسلب الحقوق ولم تغضب
أنابتة العصر إن الغريب … مجد بمصر فلا تلعبى
يقولون : فى النشئ خير لنا … وللنشئ شر من الأجنبى
أفى (الأزبكية) مثوى البنين … وبين المساجد مثوى الأب؟
(وكم ذا بمصر من المضحكات) … كما قال فيها (أبو الطيب)
أمور تمر وعيش يمر … ونحن من اللهو فى ملعب
وشعب يفر من الصالحات … فرار السليم من الأجرب
وصحف تطن طنين الذباب … وأخرى تشن على الأقرب
وهذا يلوذ بقصر الأمير … ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير … ويطنب فى ورده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين … على غير قصد ولا مأرب
وقالوا : دخيل عليه العفاء … ونعم الدخيل على مذهبى
رآنا نياما ولما نفق … فشمر للسعى والمكسب

ومـــاذا عليـه إذا فــاتتنــــا ... ونحن على العيـش لـم نـدأب

ألفنـــا الخمـــول ويـــاليتنـــا ... ألفنـــا الخمـــول ولم نكذب

وقالوا: (المــؤيد) فى غمــرة ... رماه بها الطمــع الأشعبى

دعـــاة الغـــرام بســن الكهـــول ... فجن جنونا ببنـــت النبـــى

فضـــج لهـــا العرش والحاملـــوه ... وضج لها القبر فى يثـــرب

ونـــادى رجـــال بإســـقاطــــــه ... وقالوا : تلون فى المشـــرب

وعدوا عليه من السيئات وقـــالوا ... ألوفـــا تدور مع الأحقــــب

وقالوا لصيـــق ببيـــت الرســـول ... أغار على النسب الأنـــجب

وزكــــى (أبو خطوة) قـــولهـــم ... بحكم أحـــد من المضـــرب

فمـــــا للتهـــانـــى علـــى داره ... تساقــــط كالمـــطر الصيب؟

ومـــا للوفـــــود على بـــابـــــه ... تـــزف البشائر فى مـــوكـــب

وما للخـــليقـــة أســـدى إليـــــه ... وسامـــا يليـــق بصدر الأبى؟

فيـــا أمـــة ضـــاق عن وصفها ... جنـــان المفـــوه والأخـــطـــب

تضيـــع الحقيقــــة ما بيننــــا ... ويصلى البـــرئ مـــع المذنب

ويهضم فينـــا الإمـــام الحكيـــم ... ويكـــرم فينـــا الجهـــول الغبى

على الشـــرق منى سلام الودود ... وإن طأطأ الشرق للمـــغرب

لقد كان خصبـــا بجدب الزمان ... فأجـــدب فى الزمـــن المخصب

ويشير حافظ إلى الاتفاق الودى الذى تم بين انجلترا وفرنسا عام ١٩٠٤ والذى أباح لانجلترا إطلاق يدها فى مصر فيقول:

أيعجبنـــى منك يـــوم الوفـــاق ... سكوت الجمـــاد ولعب الصبى؟

وكم غضـــب الناس من قبلنـــا لسلب الحقـــوق ولم نغضـــــب

ويسخر حافظ ابراهيم من نفاق البعض وما يراه من فوضـــى الـــرأى فيقول صارخا:

(وكم ذا بمصر من المضحكات) كمـــا قال فيهـــا "أبو الطيب"
أمـــور تمـــر وعيـــش يمـــــر ونحن من اللهـــو فى ملعـــب
وشعـــب يفر مـــن الصالحـــات فرار السليم مـــن الأجـــرب

ثم يلتفت إلى الصحافة ويندد بموقفها من الشيخ على يوسف فيقول:

وصحـــف تطـــن طنين الذباب وأخـــرى تشن على الأقـــرب
وهذا يلوذ بقصـــــر الأميــــر ويدعـــــو إلى ظله الأرحـــب
وهذا يلوذ بقصـــــر السفيـــــر ويطنـــب فى ورده الأعـــــذب

فحافظ يسخر هنا من سوءات الشعب المتقلب، الذى اجتمع نفاقه ورضاه على شئ واحد، ثم يلتفت إلى الأدباء الذين يجذبون الناس إليهم بتلاعـــبهم بالألفاظ فيخلطون الباطل بالحق ، مما يؤثر على الحقيقة فيقول:

وأديـــب قـــوم تستحـــق يمينـــه قطـــع الأنامل أو لظى الإحراق
يلهو ويلعـــب بالعقـــول بيـــانـــه فكأنـــه فى الســـحر رقية راقى
فى كفـــــه قلـــم يمـــج لعـــابـــه سمـــا وينفثـــه علـــى الأوراق
يرد الحقـــائق وهى بيض نصع قـــدسيـــة علـــويـــة الإشـــراق
فيردهـــا سوداء علـــى جنبـــاتها مـــن ظلمـــة التمويه ألف نطاق

عريـــت عن الحق المقدس نفسه فـــحياته ثقــل علـــى الأعنـــاق
لو كـــان ذا خلـــق لأسعـــد قومه ببيـــانه ويـــراعـــــه السبـــــاق

وقد فند حافظ أفكار هؤلاء ووقف ضد محاولاتهم تقسيم الـــرأى العـــام والساسة وأهل الرأى موقف المخاصم، والمقاطع والمهاجم والمهادن.

وقد تعرض حافظ بسبب هذه القصيدة للهجوم فاتهمه البعض بانـــه لـــم يتعمق درس المشكلات الاجتماعية عندما تحدث عن قضية الزوجية وذلك أنه لم يبين إهدار حرية الفتاة فى أن تتزوج بمن تحب، ولـــم يـــشر إلـــى التمسك التقليدى بالأنساب والاحساب. فوقف بذلك وقفة المتشكك من كـــل محاولة للإصلاح بعد أن تفجرت قضية الزوجية بـــشكل هـــز المجتمـــع المصرى هزا عنيفا وقاسيا.

ولما راودت فكرة التعليم الجامعى خلد المصريين وأجمع قادة الإصلاح بينهم على إنشاء جامعة وقرروا جمع التبرعات من أجل ذلك ناشد حـــافظ ابراهيم الأغنياء على التبرع بقوله:

إن كنتم تبذلون المال عن رهب فنحن ندعوكم للبذل عن رغـــب

وهو يرى ان الجامعة دار العلم العميم الذى يؤدى إلى تنوير المجتمـــع وأنها كالشهاب بجانب تلك الكتاتيب والمدارس التى يـــشبهها بالمـــصابيح فقال:

ذر الكتاتيب منشيها بلا عدد ذر الرمـــاد بعيـــن الحاذق الأرب
فأنشئوا ألف كُتَّابٍ وقد علموا أن المصابيح لا تغنى عن الشهب

وكان يرى أن الجامعة ضرورية للأمـــة حتـــى تجـد حاجتهـا مــن المتخصصين الأكفاء الذين تعلموا فن العلوم الحديثة فقال:

ومن يميط ستار الجهل إن طمست   معالم القصد بين الشك والريب
فما لكـم أيهـا الأقـوام جامعـة   إلا بجامعـة موصـولة السبب

ويتعجب فى آخر القصيدة من حال مصر ويتمنى أن يراه عزيز الجانب موفور الغنى متحررا من قيود الجهل والعادات البالية العتيقة فيقول:

متى نـراه وقد باتت خزائنـه   كنزا من العلم لا كنزا من الذهب
هذا هو العمل المبرور فاكتتبوا   بالمال إنـا اكتتبنـا فيـه بالأدب

وهو يشير فى هذا الشعر إلى جهود الطبقة المفكرة فى تشجيع المشروع والدعوة إلى نجاحه. وقد كانت جريدة اللواء توجه إلـى التعلـيم العـالى اهتماما خاصا حيث تبنى مصطفى كامل هذه الفكرة ودعـا إليهـا علـى صفحات هذه الجريدة منذ عام ١٩٠٤، وناشد المحبين لارتقاء البلاد علـى المساهمة فيها، كما عمل سعد زغلول وقاسم أمين من أجل إنجاح مشروع الجامعة، ومن أجل اللغة العربية واعتبارها لغة قومية. وساعد على هـذا انتقاد الشيخ على يوسف للسياسة الانجليزية فى التعليم فى جريدة المؤيد.

وكانت كل هذه الآراء تنصهر فى بوتقة حافظ الشعرية لتخرج قـصائد تطالب بإصلاح التعليم وإنشاء الجامعة المصرية الحديثة.

أما عن الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط فقد نالت من شعر حافظ الكثير حيث دعا إلى الوحدة الوطنية والتسامح بين الأديان قائلا:

هلاك الفرد منشؤه توان وموت الشعب منشؤه انقسام

وبعد أن استفحل الداء واستشرى عندما ثارت الفتنة بين أبناء الأمة فى سنة ١٩١١ لأسباب مصطنعة مفتعلة ، استغلها الإنجليز كوسيلة لتبرير احتلالهم لمصر بحجة المحافظة على الأمن، كما استخدموها لتمزيق وحدة الصفوف بالتفرقة والفتنة حيث داب السير "الدون جورست" المعتمد البريطانى فى مصر على ضرب الوحدة القومية المصرية. ورأى بدهائه أن يستنزف قوتها بالتفرقة حتى تخبو جذوتها فسارت سياسته على وجهين: وفاق مع الخديوى عباس الثانى ومؤامرات للتفرقة بين أبناء الشعب الواحد. واتخذ لهذا الغرض من بعض الصحف الموالية للاحتلال سندا فى إثارة النفوس إلى التنابذ والخصام. كما استغل بعض ضعاف النفوس حادثة مقتل "بطرس غالى" رئيس النظار فى إشعال هذه الحركة. وعقد مؤتمر قبطى بأسيوط ومؤتمر إسلامى بالقاهرة ردا على المؤتمر القبطى. ولكن المصريين بما جبلوا عليه من التسامح الدينى استطاعوا أن يفوتوا على المحتل غرضه فى الوقيعة بين المصريين، وردوا كيده إلى نحره، مما أسدل على هذه الفتنة الستار دون أن تخلف أثرا فلم يخرج الأمر عن كونه خلافا عارضا قام بين أبناء مجتمع واحد وانتهى بتدخل عقلاء الأمة وقد وقف حافظ ابراهيم خلال ذلك مهتز الوجدان هائج الخاطر يشعر بالاشفاق على وطنه.

وينتهز حافظ عودة الخديوى عباس من دار الخلافة سنة ١٩١١ فيشير فى قصيدته التى هنأه بها إلى خلاف المسلمين والأقباط داعيا إياه إلى العمل على تلافيه حيث يقول:

كم تحـت أذيـال الظـلام متيم ... دامى الفـؤاد وليـلة لا يعلـم
ما أنت فى دنيـاك أول عاشـق ... راميـه لا يحـنو ولا يترحـم
أهرمتنى يا ليل فى شرخ الصبا ... كم فيك ساعات تشيب وتهـرم
لا أنت تقصر لى ولا أنا مقصر ... أتعبتنى وتعبت، هل من يحكـم؟
لله موقفنـا وقـد نـاجيتـهـا ... بعظيـم ما يخفى الفؤاد ويكتـم
قالت: من الشاكى؟ تسائل سربها ... عنى، ومـن هذا الـذى يتظلم؟
فأجبنها وعجبن كيف تجاهلـت: ... هو ذلك المتـوجـه المتـألـم
أنا من عرفت ومن جهلت ومن له ... لولا عيـونك – حجـة لا تفحم
أسلمـت نفسى للهـوى وأظنهـا ... ممـا يجشمهـا الهوى لا تسلم
وأتيت يحدو بى الرجـاء ومن أتى ... متحـرما بفنـائكـم لا يحـرم
أشكو لذات الخال ما صنعـت بنـا ... تلك العيون وما جناه المعصـم
لا السهم يرفق بالجريح ولا الهوى ... يبقى عليه ولا الصبـابة ترحـم
لو تنظرين إليه فى جوف الـدجى ... متململا مـن هول ما يتجشـم
يمشى إلى كنف الفراش محـاذرا ... وجـلا يؤخـر رجـله ويقـدم
يرمـى الفراش بناظريه وينثنـى ... جـزعا ويقـدم بعد ذلك ويحجم
فكأنه – واليـأس ينشف نفسـه – ... للقتـل فـوق فراشـه يتقـدم
رشقـت به فى كل جنـب مديـة ... وأنسـاب فيـه بكـل ركن أرقم
فكـأنـه فى هـوله وسعيـره ... واد قـد أطـلعت عليـه جهنـم
هـذا وحقـك بعـض ما كابدتـه ... من ناظريـك، وما كتمتك أعظم
قالوا: أهـذا أنـت! ويحـك فاتئد ... حتـام تتجد فى الغـرام وتتهـم
كـم نفثـه لك تستثير بها الهـوى ... (هاروت فى اثنـائهـا يتكلـم)

إنا سمعنـــا عنــك ما قــد رأبنـــا   وأطال فيـك وفى هـــواك اللوم
فاذهب بسحرك قد عرفتك واقتصد   فيمـــا تزيـــن للحســـان وتوهـــم
أصغت إلى قول الوشاة فأسرفـــت   فى هجرها وجنت على وأجرموا
حتـــى إذا يئس الطبيب وجاءهـــا   أنى تـــلفت تنـــدمـــت وتنـــدموا
واتت تعـــود مريضها لا بل أتت   منـــى تشيـــع راحـــلا لو تعـــلم
أقسمت (بالعباس)، إنى صادق   فمريهـــم بجـــلاله أن يقـــســـموا
ملك عدوت على الزمان بحوله   وغـــــــــدوت فى آلائـــه اتنغـــم
النجم من حراسه ، والدهر من   خدامـــه ، وهـــو العزيز المنعـــم
هللت وحيـــن رأيت ركبك سالما   ورايت (عباسا) بـــه يتبســـم
وحمـــدت ربى حيـــن حل عرينه   متجدد العزمات ذاك الضيغـــم
خفقت قلوب المسلميـــن واشفقـــت   دار الخلافة والمليـــك الأعظـــم
ودعـــا لك البيـــت الحـــرام فأمنت   بطحاء مكة الحطيـــم وزمـــزم
ودوى بمصـــــر لك الدعـــاء فنيلها   وسهولها وفصيحهـــا والأعجـــم
ومشى الصغير إلى الكبير مسائلا   يتسقـــــط الأخبـــار أو يتنســـم
حتى اطمأنت بالشفـــاء نفوسهـــم   وطلعـــت بالسعد العميم عليهـــم
مولاى أمتك الوديعـــة أصبحـــت   وعـــرا المودة بينهـــــا تتفصـــم
نادى بهـــا القبطى مـــلء لهاتـــه   أن لا سلام وضاق فيها المسلـــم
وهم أغـــار على النـــهى وأضلها   فجرى الغبـــى وأقصر المتعلـــم
فهمـــوا من الأديان مالا يرتضـــى   ديـــن ولا يرضـــى به من يفهـــم
ماذا دهـــا قبطى مصـــر فصـــده   عن ود مسلمهـــا ومـــاذا ينقـــم؟
وعلام يخشـــى المسلمين وكيدهم   والمسلمـــون عـــن المكايد نوم

وفى نهاية القصيدة يؤكد حافظ اشتراك المصريين جميعا فى ما تتعرض له مصر من متاعب:

قد ضمننا ألم الحياة وكلنا ... يشكو، فنحن على السواء وأنتم
إنى ضمين المسلمين جميعهم ... أن يخلصوا لكم إذا أخلصتم
رب الأريكة، إننا فى حاجة ... لجميل رأيك والحوادث حوم
فأفض علينا من سمائك حكمة ... تأسو القلوب فإن رأيك أحكم
واجمع شتات العنصرين بعزمة ... تأتى على هذا الخلاف وتحسم
فكلاهما لعزيز عرشك مخلص ... وكلاهما برضاك صب مغرم

وإلى جانب هذه المسائل الاجتماعية المتصلة بسياسة البلاد، التى أدت إلى تخلف مصر عن ركب المدنية وكانت سببا فى أن يرمينا المتعصبون من أهل الغرب بالتأخر والتخلف. ويتهمون الدين الإسلامى أنه بتعاليمه سبب تخلف الشرقيين، وأن تعاليمه تحد من تقدمهم الحضارى، ومواكبة المدنية والسير فى ركابها. نجد حافظ ابراهيم يقف فى وجه المتحاملين على الإسلام، ويرد عليهم بالحجة والدليل القاطع موضحا ان سر تأخر فى الشرق لا يعود إلى طبيعة الإسلام وإنما الذنب ذنب البعض الذين لم يفهموا الإسلام على وجهه الصحيح ويستند فى ذلك إلى آراء الشيخ محمد عبده ويصفه بأنه حامى الإسلام والدين:

تباركت هذا الدين دين محمد ... أيترك فى الدنيا بغير حماة؟
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى ... ولانت قناة الدين للغمزات

وهكذا وجه حافظ كشاعر اجتماعى همه لمحاربة العيوب الاجتماعية من تقاليد واهية ، وعادات توارثها المصريون فاستقرت فى وعينا الاجتماعى، واستحال معظمها إلى بدع مضلة رسبت فى نفوس الشعب ورسخت. وكان حافظ ينهج فى محاربة هذه البدع من آراء الأستاذ الإمام فى الإصلاح الدينى والاجتماعى. فيهاجم هذه البدع التى كان لها أكبر الأثر فى تأخر الناس وتدهور أحوالهم فينتقد زيارة أضرحة الأولياء، ويبين أنهم لا ينفعون ولا يضرون، ويتهكم من الساعين إليها، الذين ينذرون النذور ويتوسلون إليها فى قضاء الحاجات:

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم ... وبألف ألف ترزق الأموات
من لى بحظ النائمين بحفرة ... قامت على أحجارها الصلوات
يسعى الأنام لها ويجرى حولها ... بحر النذور وتقرأ الآيات
ويقال هذا القطب باب المصطفى ... ووسيلة تقضى بها الحاجات

ويتعرض حافظ لأرباب الطرق فى الموالد ويكشف الستار عن الأساليب التى يتبعها هؤلاء فينسبون إلى الأولياء الكثير من الكذب والبهتان ويوقعون العامة بألاعيبهم فيقول:

كم عالم مد العلوم حبائلا ... لوقيعة وقطيعة وفراق
وفقيه قوم ظل يرصد فقهه ... لمكيدة أو مستحل طلاق
يمشى وقد نصبت عليه عمامة ... كالبرج لكن فوق تل نفاق
يدعونه عند الشقاق وما دروا ... أن الذى يدعون خدن شقاق

وهكذا كان حافظ حربا على كل لون من ألوان الفساد الاجتماعى. فقد هاجم الرشوة والمرتشين مبينا بأن ذلك يؤدى بالبلاد إلى فساد الحال، وانعدام الأمانة واستشراء المحسوبيات والاستثناءات التى تكون دائما على حساب الوطن ومصالح الفقراء ومما يزيد الأمر خطورة يذكر حافظ أن هؤلاء المرتشين هم موظفو الدولة المتعلمون فيقول هل يصلح العلم عاريا من الأخلاق، كما يتعرض لذلك فى قصيدته بقوله:

والعلم إن لم تكتنفه شمائل   تعليه كان مطية الإخفاق
لا تحسبن العلم ينفع وحده   ما لم يتوج ربه بخلاق

ويهاجم حافظ الأطباء الذين لا يراعون فى عملهم مبادئ الإنسانية وقوانين مهنتهم الشريفة التى تتطلب النزاهة والرحمة والشفقة والرأفة بالمرضى من الفقراء والضعفاء:

وطبيب قوم قد أحل لطبه   ما لا تحل شريعة الخلاق
قتل الأجنة فى البطون وتارة   جمع الدوانق من دم مهراق
أغلى وأثمن من تجارب علمه   يوم الفخار تجارب الحلاق

ويهاجم حافظ التواكل والتساهل بين الناس ويستمر مصورا رغبته فى إصلاح المجتمع الذى شاعت فيه روح التخاذل ويقسمهم فريقين فريقا يطير مع الخيال ويحلم بتحقيق الآمال، وفريقا يرتجل النوادر ويرسل النكات على وفق مقتضى الحال:

هذا يطير مع الخيال   وذاك يرتجل النوادر

ما هــد عــزم القادريــن بمصــر إلا قــول باكــر

وقد أولى حافظ هذا الداء الاجتماعى عنايته فبين أســبابه وأعراضــه موضحا أنه داء عضال ينهش الشعب ويهد من كيانه:

سرى داء التواكل فيه حتى تخطف رزقه ذاك الزحام
قد استعصى على الحكماء منا كما استعصى على الطب الجذام

ويشير حافظ إلى أثر التواكل والتخاذل فى مستوى الحياة وإلى تخلــف الأمة المصرية وعدم وصولها إلى المكان اللائق بها فيقول:

إن فينا لولا التخاذل أبطا لا إذا ما هم استقلوا اليراعــا
وعقولا لولا الخمول تولا ها لفاضت غرابــة وابتداعــا
ودعاة للخير لو انصفوهم ملئوا الشرق عــزة وامتناعــا
كاشف الكهرباء ليتك تعنى باختراع يروض منا الطباعــا
آلة تستحق التواكل فى الشر ق وتلقى عــن الرياء القناعــا

وهو إذ يندد بتخاذل المصريين وقعودهم عن استغلال موارد بلادهــم ينعى عليهم تسليم أمورهم إلى الأجانب فيقول:

أمة قد فت فى ساعدها بعضهــا الأهل وحب الغربا

وقوله فى قصيدة أخرى:

وما الموت الزؤام إذا عقلنا سوى الشركات حل لها الحرام
لقد سعدت بغفلتنا فراحت بثروتنا وأولها (التـــــرام)

فيا ويل الفتاة إذا احتواها بنو (التاميز) وانحسر اللثـــام

وحافظ فى نقده طائفة الأغنياء الذين انتهت إليهم الثروات، يوضـــح أن كل همهم هو الحصول على الألقاب فيقول:

وهل فى مصر مفخرة ســـــوى الألقاب والرتـــــب

ويحس حافظ بمرارة لهذه العيوب الاجتماعية التى التصقت بالمصريين ولم يحاولوا التخلص منها ولذلك نجده يطالب إيقاظهم من غفلتهم فيقول:

فهبـــوا من مراقدكم فإن الوقـــت مـــن ذهـــب

ويظل حافظ يرشد أبناء وطنه إلى الطريق الصحيح فيقول:

قم يا ابن (مصر) فأنت حر واستعد مجد الجدود ولا تعــد لمراح
شمر وكـــافح فى الحـــياة فهـــذه دنيـــاك دار تنـــاحر وكفـــاح
وخض الحياة وإن تلاطم موجها خوض البحار رياضة السباح
واجعل عينيك قبل خطوك رائدا لا تحسبن الغمر كالصحضاح

ويطالبهم بالنظر إلى الغرب ويترسمون خطاه فيقول:

وانظر إلى الغربى كيف سمت به بين الشعوب طبيعـــة الكـــداح
والله ما بلغت بنو الغرب المنى إلا بنيـــــات هنـــاك صحـــاح
ركبوا البحار وقد تجمد ماؤها والجـــو بيـــن تنـــاوح الأرواح
والبر مصهور الحصى متأججا يرمى بنـــزاع الشــــوى لواح
يلـــقى فتـــيهم الزمان بـــهمة عجب ووجه فى الخطوب وقاح

ويشق أجواز القفار مغامرا وعز الطريق لديه كالصحصاح

لقد خالط حافظ جميع طبقات الأمة رغم ما بينها من تفاوت فى الرزق والثقافة والطباع . وترسبت فى نفسه يتمه الباكر رواسب الماضـــى ومـــا يتمتع به الأغنياء وأصحاب المكانة الممتازة من الأسر الكبيرة المعروفـــة. فينظر بعين التأمل إلى هذا التفاوت الطبقي، فالأغنياء الموسرون ينفقـــون ويتمتعون، ولا يكادون يحسون بؤس البائسين ولا شكوى المحرومين، فما هم فيه من غنى وثراء شغلهم عن إخوانهم الفقراء.

وبين هاتين الطبقتين المتفاوتين طبقة وسطى كافحت من أجـــل حيـــاة أفضل وحاولت الوصول إلى منتصف الطريق.

وهذا التفاوت بين هذه الطبقات جعل التعاون بينها يكاد يكـــون نـــادرا. فالزكاة التى جعلها الله فى مال الغنى حقا معلوما للسائل والمحروم بخل بها الأغنياء وضنوا بها على الفقراء.

وبرزت مأساة هذا التناقض بين طبقات الأمة فى نفس حافظ الـــشاعرة التى ذاقت من البؤس ألوانا خلال طفولته فكان يشفق على الطبقة الفقيـــرة ويهاجم غلاء الأسعار فى صراحة وقوة فيقول:

أيها المصلحون ضاق بنا العيش ولم تحسنـــوا عليـــه القيامـــا

عزت السلعـــة الذليـــلة حتـــى بات مسح الحذاء خطبا جساما

وغدا القوت فى يد الناس كاليا قوت حتى نوى الفقير الصياما

هو لا يتوقف عند هذا الهجوم بل يعاوده من خلال القـــصيدة بـــصورة تثير النفوس وتبعث على السخط، مبينا أثر الحاجة وما تـــدفع إليـــه مـــن ارتكاب الآثام:

أيها المصلحون أصلحتم الأر ض وبتم عن النفوس نياما
أصلحوا أنفسا أضر بها الفقر وأحيا بموتها الآثاما
وأغيثوا من الغلاء نفوسا قد تمنت مع الغلاء الحماما
أوشكت تأكل الهبيد من الفقر وكادت تذود عنه النعاما

وهو مع ثورته يبين سخريته المرة من المسئولين فيخاطبهم قائلا:

قد شقينا ونحن كرمنا الله بعصر يكرم الانعاما

ولما كان سوء الأحوال الاقتصادية يؤثر فى الفقراء بصورة تزيد حالتهم سوءا فقد طالب أصحاب القلوب الرحيمة بمد يد العون لتعين هؤلاء وتمسح عنهم البأساء وقدم شكره إلى جماعة رعاية الأطفال لما تقوم به من خدمات فأشاد بأعمال هذه الجماعة وأفضالها على الطفولة البريئة البائسة، والأمومة التعيسة.

ونراه يمجد هذه الإنسانية العالية التى تدفع جماعة رعاية الأطفال إلى التبرع بخدماتها لمن هو فى حاجة إليها دون كلل ولا استعلاء.

وقد أنشد حافظ فى هذا الحفل القصيدة التالية:

شبحا أرى أم ذاك طيف خيال لا ، بل فتاة بالعراء حيالى
أمست بمدرجة الخطوب فما لها راع هناك وما لها من والى
حسرى، تكاد تعد فحمة ليلها نارا بأنات ذكين طوال
ما خطبها، عجبا، ولما خطبى بها؟ مالى أشاطرها الوجيعة مالى؟
دانيتها ولصوتها فى مسمعى وقع النبال عطفن إثر نبال
وسألتها: من أنت؟ وهى كأنها رسم على طلل من الأطلال

فتململت جزعا وقالت: حامـــل ... لم تدر طعم الغمض منذ ليالى
قد مات والدها، وماتت أمهـــا ... ومضى الحمام بعمها والخـــال
وإلى هنا حبس الحياء لسانهـــا ... وجرى البكاء بدمعها الهطـــال
فعلمت ما تخفى الفتاة وإنمـــا ... يحنو على أمثالهـــا امثالـــــى
ووقفت أنظرها كأنى عابـــــد ... فى هيكل يرنوإلى تمثـــــــال
ورأيت آيات الجمـــال تكفلـت ... بزوالهن فوادح الا ثقــــــال
لا شئ أفعل فى النفوس كقامـة ... هيفاء روعها الأسى بهـــزال
أو غادة كانت تريك إذا بـــدت ... شمس النهار فأصبحـت كالال
قلت: انهضى، قالت: أينهض ميت ... من قبره ويسير شـــن بالـــى
فحملت هيكل عظمها وكأننـــى ... حملت حين حملت عـــود خلال
وطفقت أنتب الخطـــا متيممـــا ... بالليل (دار رعاية الأطفـــال)
أمشى وأحمل بائسين : فطـــارق ... باب الحياة ومؤذن بـــــزوال
أبكيهمـــــا وكأنمـــا أنا ثالـــث ... لهما من الإشفاق والإعـــــوال
وطرقت باب الدار لامتهيبـــــا ... أحدا ولا مترقبا لســـــــؤال
طرق المسافر أب من أسفــــاره ... أو طرق رب الدار غير مبالـــى
وإذا بأصوات تصيح : الا افتحوا ... دقات مرضى مدلجيـــن عجال
وإذا بأيد طاهرات عـــــودت ... صنع الجميل تطوعت فى الحـــال
جاءت تسابق فى المبرة بعضـــها ... بعضا لوجه الله لا للمـــــال
فتناولت بالرفق ما أنا حامـــــل ... كالأم تكلأ طفلها وتوالـــــــى
وإذا الطبيب مشمر وإذا بهـــــا ... فوق الوسائد فى مكان عالـــى
جاءوا بأنواع الدواء وطوفــــوا ... بسرير ضيفتهم كبعـــض الآل

وجثا الطبيب يجس نبضا خافتــا ويرود مكمن دائها القتـــــال

لم يدرحين دنا ليبلو قلبهـــــا دقات قلب أم دبيب نمـــــال

ودعتها وتركتها فى أهلهـــا وخرجت منشرحا رضى البـــال

وعجزت عن شكر الذين تجردوا للباقيات وصالح الأعمـــال

لم يخجلوها بالسؤال عن أسمها تلك المروءة والشعور العالـــى

خير الصــنائع فى الأنام صنيعة تتبـــــو بحاملها عن الإذلال

وإذا النــوال أتـــى ولم يهرق له ماء الوجوه فذاك خير نـــوال

من جاد من بعد الســـؤال فإنه – وهو الجواد – يعد فى البخال

لله درهم فكم من بـــائـــس جم الوجيعة سيئ الأحـــوال

ترمى به الدنيا ، فمن جوع ، إلى عرى ، إلى سقم ، إلى إقـــلال

عين مسهدة وقلب واجـــف نفس مروعة وجيب خالـــى

لم يدر ناظره أعريانا يـــرى أم كاسيا فى تلكم الأسمـــال

فكأن ناحل جسمه فى ثوبــــه خلف الخروق يطل من غربـــال

يا برد ، فاحمل، قد ظفرت بأعزل يا حر، تلك فريســة المغتـــال

يا عين سحى، يا قبول تفطـــرى يا نفس رقى يا مروءة والـــى

لولاهم لقضى عليه شقـــــاؤه وخلا المجال لخــاطف الآجــال

لولاهم كان الردى وقفا علـــى نفس الفقير ثقيـلة الأحمـــال

لله در الساهرين على الآلـــى سهروا من الأوجاع والأوجـــال

القائمين بخير ما جاءت بـــه مدنية الأديـــان والأجيـــال

أهل اليتيم وكهفه وحماتـــه وربيع أهل البؤس والإمحـــال

لا تهملوا فى الصــالحات فـإنكم لا تجهلون عواقب الإهمـــال

إنى ارى فقراءكم فى حاجـــة — لو تعلمون — لقائل فعـــال
فتسابقوا الخيرات فهى أمامكم ميدان سبق للجــواد النـــال
والمحسنون لهم على إحسانهم يوم الإثابة عشــرة الأمثـــال
وجزاء رب المحسنين يجل عن عد وعن وزن وعن مكيـــال

ولما أقامت جماعة رعاية الأطفال حفلها بدار الأوبــرا، ألقــى حــافظ قصيدة دعا فيها إلى الإحسان والقصيدة التى ساقها تدور حول محسن ينجيه إحسانه من الموت تحت القطار ومن الغرق مبينا إذا قام الأغنياء بــاخراج الزكاة يقل عدد المحرومين والبؤساء:

أنجاة من القطار، من الجسر، من النهــر جــل رب الأنــام
وإذا صــيحة علت من فــتـــاة برزت من صفوف ذاك الزحام
وقفـــت موقف الخطيب ونادت تـــلك عقبـــى رعايـــة الأيتـــام
إن هـــذا الكريم قدصان عرضى وحمانـــى من عاديـــات السقام
عال طـــفلى وعالنى وحـــبانـــى بكســـاء وبـــدرة وطعـــــــام

كما بين أن هذا الرجل الذى أنجاه الله من المــوت هــو عــضو هــذه الجماعة التى تساعد كل ملهوف بائس فقال:

وهو من معشر أغاثوا ذوى البؤ س وقاموا فى الله خير القيـــام

ولما كان حافظ يرى ان عليه واجبا نحو البؤســـاء، فلابــد أن يعلــن صرختهم فى المجتمع وأن يهز المتغافلين عــن مــساعدتهم، وأن يــساند الجمعيات التى تقوم على رعايتهم سواء كانوا أطفالا أم أمهات، صغارا أم

كبارا، ويحس فى قرارة نفسه أن الخير الذى يجلبه لهؤلاء ، هو قبس الأمل ونور الرجاء. ولا ينسى أيامه الأولى التى ذاق فيها آلام اليتم فقال:

لم اقف موقفى لأنشد شعرا ... صب فى قالب بديع النظام
إنما قمت فيه والنفس نشوى ... من كئوس الهموم والقلب دامى
ذقت طعم الأسى وكابدت عيشا ... دون شربى قذاه شرب الحمام
فتقلبت فى الشقاء زمانا ... وتنقلت فى الخطوب الجسام
ومشى الهم ثاقبا فى فؤادى ... ومشى الحزن ناخرا فى عظامى
فلهذا وقفت استعطف النا ... س على البائسين فى كل عام

لقد أحس حافظ مأساة الطفولة المشردة إحساسا عنيفا. وكانت كل قصيدة يقولها تصف العلل وتبرز الماساة وتستدر أنبل ما فى الأغنياء من عواطف الإشفاق والرحمة.

وها هو يرى الجمعية الخيرية الإسلامية تمد يد العون إلى الأيتام الذين تقوم على تربيتهم وتنشئتهم تنشئة صالحة ، فيهزه صنيع الجمعية، ويرى ان عليه أن يشيد بها وبمعروفها، فيلقى قصيدة بين يدى السلطان حسين كامل حاكم مصر فى حفل أقامته الجمعية بدار الأوبرا السلطانية. وفى هذه القصيدة يتحدث على لسان أحد صنائع الجمعية الذى كان يتيما بائسا فكفلته الجمعية حتى اكتمل عقلا وعلما. ويكاد القارئ يستشف يتم حافظ. فآلام طفولته تطل من الأبيات التى تحدث بها اليتيم عن نفسه.

لم يبق من اهلى سوى ... ذكر تناساه الصحاب
أمشى يرنحنى الأسى ... والبؤس ترنيح الشراب

فلكم ظللت على طـــــوى　　يومى وبت على تبـــــاب

والجوع فراس لــــــــه　　ظفر يصول به ونـــــاب

فكأنــه فى مهجتـــــــى　　نصل تغلغـــــل للنصـــاب

وهذا اليتيم قيض الله له الجمعية الخيرية التى فتحت له فى ظلام حياته بابا من أمل ونور، إذا علمته بمدارسها ورعته ببرها الذى شـملـه دون أن يحس من أحد منا ولا اذى

وجمـــال صنع البـــرأ　　لا يستشـــف له حجـــاب

والشعور الذى يعطف حافظا نحو الطفولة والدعوة للبر بها، كان دائما يتأجج فى نفسه فهو يمضى فى الحياة محروما من الاستقرار العائلى ومن حنان الأم وعطف الزوجة وتعلق الأبناء. فكان يحس فى أقصى ضـميره بما يشعر به هؤلاء، ولذلك استمر يدعو للبر بهـم . والإحـسان إلـيهم، بمساعدة الجمعيات القائمة على رعاية الطفولة:

قد أجبنا نداء كن وجئنـــا　　نسأل القادرين بعض النوال

لو ملكنا عير المقال لجـدنا　　إن جهد المقل حسن المقـال

ونراه يشيد فى قصيدته التى أنشدها لأول مايو سـنة ١٩٢٨ بجمعيـة أعضاؤها من السيدات ذوات القلوب الرقيقة:

أى ذورات الحجال عشتن للبر　　ودمتن قدوة للرجــــال

لم يكونوا ليدركوا المجد لولا　　كن أو يسلكوا سبيل المعالى

قمن علمننا المروءة والعطف　　على البائسين والســـؤال

قمن عملننا الحنان على الطفل　　شريدا فريســـة المغتـــال

ويتوجه إلى الحاضرين يطالبهم بالتبرع وتأييد دعوة الإحسان لا إلــى هذه الجمعية وحدها ولكن إلى كل مشروع يحمل فى طياته برا بالمساكين:

أيدوا كل مجمع قام للبــــــر   بجاه يظللــه أو بمـــــــال

وهنا يشمل حافظ بشكره رجال الإسعاف وما يــؤدون مــن خــدمات لتخفيف ويلات الإنسانية:

ورجــال الإسعـــاف أنبــل لولا   شهوة الحرب من رجال القتال
يسهرون الدجـــى لتخفيــف ويل   او بلاء مصوب أو نكـــــال
كم جريـــح لولاهم مـــات نزفــا   فى يد الجهل أو فى يد الإهمال
كم صريع من صدمة أو صريع   من سموم مخدر الأوصـــــال
كم حريق قــد أحجم الناس فيــه   عن ضحايا تئن تحت التـــلال
يترامون فى اللهيــب سراعـــــا   كترامى القطا لورد الـــزلال
لا لشئ ســـــوى المروءة تحـلو   طعمها فى فم المرئ الموالـــى

وقصيدته هذه توضح أتساع دعوة البر عند المصريين وتقــدم الــوعى الاجتماعى لديهم ، مما ساعد على تخفيف دموع المنكوبين ، والمسح بيــد الرحمة على آلام البائسين.

وحافظ لا يتوقف عن الدعوة لمساندة محافل البر فى قصائده فهو يرى فى نفسه حامى الطفولة والهاتف بدعوتها. ويفخر بأنه الشاعر الاجتماعى الذى يقف مع هؤلاء ففى مايو سنة ١٩١٩ يدعو إلى معاونة ملجأ الحرية الذى يأوى الأيتام وينشئهم تنشئة صالحة . ويقول فى قصيدته إن أغنيــاء مصر قد اتسعت فى نفوسهم عاطفة البر وأنهم اليوم غيرهم بالأمس.

لا تسئ ظنا بمثرينـــا فقد   تاب عن آثامــــه واستغفرا

كان بالأمس وأقصى همه إن أتى عارفه أن يظهرا
فغدا اليوم يواسى شعبه وهو لا يرغب فى أن يشكرا
نبهت عاطفة البر به محنة عمت ومقدار جرى

ويرى أن هذا التراحم بين الطبقات لم يعد مظهرا من مظاهر الإيمان بالدين والعمل بمقتضاه، بل يراه إيمانا بمصر وحقها عليهم فى أن يتعاهد أبناؤها على دفع الأذى، وان يتواصوا فيما بينهم بالبر حتى يصير شعب مصر شعبا صالحا متآزرا، أبناؤه أعضاء جسد واحد إن شكا منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وما أروع حافظا الذى بر بالطفولة والدعوة لعونها واستنقاذها من براثن الجهل والفقر والمرض، إذ رأى بعينه أن هناك طائفة أخرى من بنى وطنه تستحق أن يدعو لها ويعلن عن بؤسها وحاجتها إلى العناية والرعاية والإصلاح، وهى طائفة المكفوفين الذين سلبتهم الأقدار نعمة الإبصار، فإذا كانت جمعيات الطفل قد نالت قسطا وافرا من شعره وعطفه فإن جمعية إعانة المكفوفين هى الأخرى كانت ضمن اشعار حافظ فى حفلها الذى أقيم بالأوبرا فى ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٦ فألقى قصيدة استجدى بها أكف المحسنين لبناء مدرسة لهؤلاء المكفوفين الأحداث مؤكدا حقهم على إخوانهم الذين يملكون المال ونعمة البصر:

إن حق الضرير عند ذوى الإبـ صار حق مستوجب التقديس
لم يضره فقدانه نور عينيـ ـه إذا اعتاض عنهما بأنيس
آنسوا نفسه إذا أظلم العيـ ـش بعلم فالعلم أنس النفوس

وحافظ فى معرض استنهاض الهمم لوح للمتبرعين بالفائدة التى قد يجنيها المجتمع من صنيعهم فربما أنجبت مدرسة العميان عبقريا يكون فى مجتمعه أديبا مثل طه حسين عميد الأدب العربى أو غيره فيقول:

أكملوا نقصه يكن عبقريا   مثل " طه " مبرزا فى الطروس

كم رأينا من أكمه لا يجارى   وضرير يرجى ليوم عبوس

وبهذا يؤكد حافظ الحق المعلوم فى مال كل غنى لأخيه فى الوطن الذى نكبته الحوادث وجار عليه الزمن. بل إنه ليذهب إلى أبعد من هذا فهو يؤكد معنى التكافل الاجتماعى بين أبناء الوطن مما يعد أحدث ما تتجه إليه التشريعات الاجتماعية فى العصر الحديث.

وحافظ ابراهيم الذى اتسعت نفسه لآلام أمته، ورقت عاطفته الكبيرة لآلام الناس التى نكبتها الحياة بدأت نفسه تتسع ، وعاطفته الإنسانية العالية تمتد لتتأثر بمصائب الإنسانية كلها. فهو يقول بلغته العربية شعرا يصور به آلام البشرية خارج الديار المصرية تصويرا رائعا فيه كل معانى التألم لآلام الآخرين والرثاء لهم واستدرار العطف عليهم ففى عام ١٩٠٢ وقع بركان فى منطقة المارتنيك إحدى جزر الهند الغربية الفرنسية، فأشار حافظ إلى كثرة ضحاياه معبرا عن إحساسه بالألم للفجيعة التى تعرض لها البشر هناك

وفى عام ١٩٠٨ كان زلزال "مسينا" قد أصاب الإيطاليين بكثير من عنت الأقدار والخراب والدمار فتهز هذه الحوادث حافظ هزا عنيفا وتحرك فى قلبه مشاعر الإنسانية وعواطف الرحمة والمواساة. فيبدأ فى وصف الزلزال بالحديث عن غضب الطبيعة على الإنسان، وغضب البر والبحر

على البشر، ويصف مظاهر ثورة الطبيعة وخسفها بلدة مسينا وإغراقهـا. وزرعها للموت فى كل مكان ثم ينتقل إلى ناحيـة مـن الوصـف تمـس العواطف الإنسانية مسا عنيفا. وتهز المشاعر هزا لا تعرف معـه طعمـا للقرار والهدوء فيقول:

رب طفل قد ساخ فى باطن الأر ض ينادى : أمى ، أبى، أدركانى
وفتاة هيفاء تشوى على الجمـ ر تعانى من حرة ما تعانـى
وأب ذاهل ، إلى النار يمشـى مستميتا تمتد منه اليـدان
باحثا عن بناتـه وبنيـه مسرع الخطو مستطير الجنـان
تأكل النار منه لا هو تـاج من لظاها ولا اللظى عنه وإنـى

وهكذا وصف حافظ ثورة الطبيعة وصفا مشخصا يبعث فى نفس القارئ من الصور والأخيلة ما يثير انفعالات الخوف والجزع والأشفاق:

بغت الأرض والجبال عليهـا وطغى البحـر أيَّما طغيـان
تلك تغلى حقدا عليها فتنشـق انشقاقـا من كثـرة الغليـان
فتجيب الجبال رجمـا وقذفـا بشواظ من مارج ودخـان
وتسوق البحـار ردا عليهـا جيش موج نائى الجناحين دانى
فهنا الموت أسمر اللون جـون وهنا الموت أحمر اللون قانـى

كما يعبر حافظ عن الجانب التصويرى للحادث فيقول:

ألبسـوك الدمـاء فوق الدمـاء وأروك العـداء بعد العـداء
فلبسـت النجميع من عهد قابيـ ل وشاهـدت مصرع الأبرياء
فلك العـذر إن قسوت وإن خنـ ت وإن كنت مصدرا للشقـاء
غلط الناس، ما طغى جبـل النا ر بإرسال نفثـه فى الهـواء

أحرجوا صدر أمة فأراهم بعض ما أضمرت من البرحاء
اسخطوها فصابرتهم زمانا ثم أنحت عليهم بالجزاء
أيها الناس إن يكن ذاك سخط الـ أرض، ماذا يكون سخط السماء؟
إن فى علو مسرحا للمقاديـ ـر وفى الأرض مكمنا للقضاء
فاتقوا الأرض والسماء سواء واتقوا النار فى الثرى والفضاء

أما عن موقف حافظ من المرأة، فقد أدرك خطرها فى الحياة المصرية، خاصة بعد أن أشرق نور العلم عليها وفتح أمامها آفاقا من التطلع إلى الرقى والتقدم، كلما حظيت بنصيب من الثقافة، وكلما تفتحت أمامها أبواب الاتصال بالحياة.

وعندما دعا قاسم أمين إلى تحرير المرأة وألف لتوضيح دعوته كتابين هما "تحرير المرأة" و "المرأة الجديدة" وكان لدعوته صدى مقاومة عنيفة من الذين تذرعوا بحجة الدين فى مهاجمته. وقف حافظ إلى جوار قاسم أمين يسانده بشعره ويشد من أزره فنشر قصيدة عنوانها "إلى محرر المرأة" يقول فيها:

أقاسم إن القوم ماتت قلوبهم ولم يفقوا فى السفر ما أنت كاتبه
إلى اليوم لم يرفع حجاب ضلالهم فمن ذا تناديه ومن ذا تعاتبه
فلو أن شخصا قام يدعو رجالهم لوضع نقاب لاستقامت رغائبه
ولو خطرت فى مصر حواء أمنا يلوح محياها لنا ونراقبه
وفى يدها العذراء يسفر وجهها تصافح منا من ترى ويخاطبه
وخلفهما موسى وعيسى وأحمد وجيش من الأملاك ماجت كواكبه
وقالوا لنا رفع النقاب محلل لقلنا نعم حق ، ولكن نجانبه

ففى هذه الأبيات تبدو سخرية حافظ من المعارضين لتحرير المرأة فهو يعلل صدهم عن دعوة قاسم بأنهم لا يفهمون الصواب، ولا يسلكون سبيل الحق، ولا يتبعونه ويغلو حافظ فى سخريته منهم مبينا انهم لا يؤمنون بدعوة الحق التى يدعو إليها قاسم أمين. غير أن حافظ يبدو عليه الخوف والتردد فى مناصرة قضيتها، فنراه فى قصيدته التى قالها فى مدرسة البنات ببورسعيد فى ٢٩ مايو سنة ١٩١٠ يقف موقفا وسطا بين المغالين فى المطالبة بحرية المرأة ، وبين الذين يتزمتون ويرون الحَجْرَ على حريتها وإهمال وجودها وكأنها متاع يقتنى . فيقول:

من لى بتربية النساء فإنها ... فى الشرق علة ذلك الإخفاق

الأم مدرسة إذا اعددتها ... أعدت شعبا طيب الإعراق

الأم روض إن تعهده الحيا ... بالرى أورق أيما إيراق

الأم أستاذ الأساتذة الألى ... شغلت مآثرهم مدى الآفاق

ولكنه يحسب حسابا للرأى العام وموقفه من المرأة، ويحرص على أن يسترضيه ليبقى على إعجابه به باعتباره الشاعر الاجتماعى فيرتد عن الصراحة وعن مجابهة الرأى العام التى عرفناها منه عند بدء دعوة قاسم أمين، ويقول:

أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا ... بين الرجال يجلن فى الأسواق

يدرجن حيث أردن لا من وازع ... يحذرن رقبته ولا من واقى

يفعلن أفعال الرجال لواهيا ... عن واجبات نواعس الأحداق

فى دورهن شئونهن كثيرة ... كشئون رب السيف والمزراق

وهكذا يمسك العصا من وسطها لا يؤيد التحرر السافر ولا التقييد الذى عفا عليه الزمن فيقول:

كلا ولا أدعوكم ان تسرفوا في الحجب والتضييق والإرهاق
ليست نساؤكم حُلِيًّا وجواهرا خوف الضياع تصان فى الأحقاق
ليست نساؤكم أثاثا يقتنـــــى فى الدور بين مخادع وطبـــاق
تتشكل الأزمان فى أدوارها دولا وهن على الجمود بواقـــى

فحافظ يدعو إلى حال وسط بين الطرفين المتنــازعين حتـــى يرضـــى أنصار التجديد والمحافظين على التقاليد معا فيقول:

فتوسطوا فى الحالتين وانصفوا فالشر فى التقييـــد والإطـــــلاق
ربوا البنات على الفضيلة إنها فى الموقفين لهن خير وثـــاق
وعليكم أن تتبين بناتـــــــكم نور الهدى وعلى الحياء الباقـــى

ولا يتعرض حافظ لحقوق المرأة المصرية فى المجتمع، ولا يدافع عن قضيتها بعد وفاة قاسم أمين ، وإنما يكتفى بتسجيل نـــشاطها الاجتمـــاعى ومساهمتها فى جمعيات الطفولة وملاجئ الأيتام، أو مساهمتها فى الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ كمظاهرة السيدات المصريات وغيرها.

ويستمر حافظ فى قصائده يتتبع أخبار وطنـــه وأوضـــاعه الـــسياسية والاجتماعية وعندما فجعت مصر بوفاة زعيم الأمة سعد زغلول قام حافظ بكتابة قصيدة رثاء أنشدها فى الحفل الذى أقيم لتأبين الفقيد فى ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٧م فيقول:

إيه يا ليل هل شهدت المصابـــا كيف ينصب فى النفوس انصبابا؟

بلغ المشرقين قبل انبلاج الصبـــح أن الرئيـــس ولى وغابــــــــا

وانع للنيرات (سعدا) فــ (سعـــد) كان أمضى فى الأرض منها شهابا

قديا ليل من سوادك ثوبـــــــا للدرارى وللضحــــى جلبابــــــا

انسج الحالكات منك نقابـــــــا واحب شمس النهـــار ذاك النقابــا

قل لها: غاب كوكب الأرض فى الأر ض فغيبى عن السمـــاء احتجابــا

والبسينى عليه ثوب حــــــــداد واجلسى للعــزاء فالحزن طابــــا

أين (سعد) ؟ فذاك أول حفـــــل غاب عن صدره وعاف الخطابــا

لم يعود جنوده يـــوم خطــــــــب أن ينادى فلا يــرد الجوابــــا

عل أمرا قد عاقـــه، عل سقمـــــا قد عراه ، لقــد أطال الغيابــــا

أى جنود الرئيس نـــادوا جهـــارا فإذا لم يجب فشقـــوا الثيابــــا

إنها النكبة التى كنــت أخشـــــى إنها الساعـــة التى كنت أبـــى

إنها اللفظة التى تنســـــق الأنــ فس نسقـــا وتفقر الأصـــلابــــا

مات (سعد)، لا كنت يا (مات سعد) أسهامـــا مسمومـــة أم حرابــــا

كيف أقصدت كل حى علــــى الأر ض وأحدثت فى الوجود انقلابا؟

حســــرة عند أنـــة عــــــن آه تحتها زفرة تذيب الصلابــــا

قل لمن بات فى (فلسطين) يبكــــى إن زلزالنـــا أجل مصابــــا

هذا عن قصائد حافظ وأفكاره عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية، ويتبقى الحديث عن حافظ كشاعر رائع النكتة يمتلك الفكاهة الحلوة والنوادر المستملحة ، وهو ما سنتعرض له فى الفصل التالى.

الفصل الرابع

الفكاهة فى شعر حافظ إبراهيم

كان حافظ فى جلساته بين أصدقائه خفيف الظل، عذب الحديث، رائع النكتة حتى عرف بدعاباته ونكته ، وله فى ذلك المجال إنتاج كبير شعرا ونثرا حيث منحته الطبيعة قدرة فائقة على الفكاهة الحلوة والنوادر المستملحة، فبالرغم من حالة البؤس التى كان يعيشها ورغم الخوف والقلق الذى كان يحياه فقد كان يقضى معظم وقته فى المقاهى والمنتديات حيث يضحك ويضحك معه الناس من الأعماق، يسخر من كل شئ ، ويملأ المكان بأساليب الفكاهة الأدبية التى تتميز بالبساطة وخفة الروح، وتحرك نفوس الناس ليضحكوا رغم ما هم فيه من معاناه.

وعلى الرغم من شعوره باليتم والحزن والاكتئاب، فقد كانت روحه تتسم بالحياة المستهينة بقيودها، وكان له ذوق بارع فى اختراع النكتة من كل ما يدور حوله فى جلساته فما أن يسمع حديثا أو يعرض أمامه شئ حتى يدرك موضع الفكاهة منه فيختطف النادرة من كل لفظ ويرتب الدعابة من أى معنى، فكان يضحك من البؤس ومن الشقاء ومن كل شئ، ويصوغ من ذلك صياغة تستخرج ضحك السامعين من أعماق قلوبهم، حيث يرسل النكتة فيستخرج منها ضحك الشيخ الوقور، والرجل الرزين ، والشاب الصغير ومن العجيب مع هذا أنه قلما نرى للنوادر والنكات فى شعره إلا القليل ومن نوادره ودعاباته ونكاته نذكر أنه كان ذات مرة فى زيارة للشيخ المراغى شيخ الأزهر، ورئيس هيئة العلماء فى داره بحلوان

يتناقش معه فى المسائل الدينية والأدبية وكثيرا ما كان حافظ يداعب الشيخ، وكان الشيخ يتقبل دعاباته ويطالبه بالمزيد منها، وحدث أن الشيخ المراغى اشترى خمسة من الديوك الرومى، ولم يكد الصباح يطلع عليها حتى ماتت فارسل حافظ إلى الشيخ رسالة تعزية قال فيها:

رحم الله خمسة من ديوك ... للمراغى عوجلت بالفناء
فلو أن الأستاذ خير فيها ... بين موت لها وبين فداء
لافتداها بخمسة من شيوخ ... من اساطين هيئة العلماء

ومما يحكى عن نوادر حافظ أن سعد زغلول كان على موعد مع الأديب المعروف أمين الرافعى فذهب إليه متأخرا، ولما سأله سعد عن سبب تأخره أخبره أنه حدث له مغص، فشرب فى الصباح شربة من الملح الانجليزى، وأن الشربة لم تتحرك فى بطنه، وكان حافظ إبراهيم جالسا، فرد على الفور "هم الانجليز يا أمين بك لما يدخلوا حتة يطلعوا منها؟!

وبهذا جمع حافظ بين النكتة من الانجليز والتهكم عليهم فى وقت واحد فإن كانت النكتة هنا مادة للدعابة والضحك، إلا أنها أكدت حقيقة واقعية، ساقها حافظ ببديهته الحاضرة، كى تصف الانجليز، وتتهكم عليهم ، ثم تهزأ من وجودهم، وقد جاءت فى تلقائية مباشرة، أنبثقت من نفس شاعر النيل، حتى صارت مثلا، تتلقفه العامة ويتردد بين الناس.

ومما يروى أن الدكتور محجوب ثابت قد رأى حلما فقصه على سعد زغلول، فأخبره بأن حافظ هو الذى يمكنه تفسيره، خاصة وأنه كان مشهورا بتفسير الأحلام ويعتقد فى الرؤى وأثرها فى حياة الانسان ولما قصه على حافظ بقوله : رأيتنى راكبا بغلة عليها سرج موشى بالذهب،

سائرة بى فى حقول خضراء، بينما كان كثير من الحمير تتبعنى، فقال لـــه حافظ (البغلة دى كرسيك فى مجلس النواب، فسأله محجـــوب: والحميـــر اللى كانت ورايه ؟ فقال حافظ دول اللى راح ينتخبوك.

ويحكى أن حافظ كان دائم التندر والسخرية على صديقه إمام العبد وكانت له معه مفاكهات كثيرة تؤكد قوة العلاقة بينهما، وذات مرة كان إمام العبد يملى شيئا، وحدث أن سقطت نقطة حبر على الورق فقال له حـــافظ (الحق يا إمام نشف عرقك) ومن المعروف ان اماما كان أســـود الوجـــه، وذات مرة لبس أمام رباطا للرقبة أسود فلما رآه حـــافظ قـــال لـــه (زرر القميص يا إمام).

ويتندر حافظ بصديقه إمام وكان يسكن فى بيت صغير ضيق "بأن غفير الدرك يشكو كل ليلة من أنه حين يمر بمنزله يتوقف عـــن المـــرور وينادى يا إمام رجليك طالعة من الشباك يا أخى مش ضرورى تنام ممدد" وفى أحد الأيام نزلا إلى البحر معا، وعندما خرجا نظر إلى إمـــام وكـــان شديد السواد من شدة الشمس، وقال "أنت الان سودانى مملح" ثم رأى سيدة جميلة تسير على الشاطئ فالتفت إلى إمام وأخذ يقبله ، فانزعج إمام وسأله، ما هذا يا حافظ؟ فقال : اقبل الأرض بين يديها".

وذات مرة دخل عليه صديقه " الشيخ عبد العزيـــز البـــشرى" وبـــادره قائلا:" لقد رأيتك من بعيد فتصورتك واحدة ست فرد عليه حافظ والله يظهر أن نظرنا ضعف. أنا كمان شفتك وانت جاى افتكرتك راجل.

وذات مرة كان البشرى وحافظ مدعوين إلى احدى الـــرحلات ودخـــل البشرى على حافظ فى غرفة النوم ، وطلب إليه ان يرتدى ملابسه فقال له

حافظ " أنا لسه مغسلتش وشى فرد عليه البشرى وشك مش عاوز غـسيل نفضه كفاية"!

وحدث ذات مرة أن حافظ حضر حفلة موسيقية وكان العـزف رديئـا فطلب من قائد الفرقة ان يسمعهم لحنا آخر، فأجاب المايسترو بان اللحـن الذى يعنيه سبق لهم عزفه منذ دقائق، فصاح حافظ على الفور: يا سـلام، على كده يبقى انبسطنا. وخلال الحملة الانجليزية بقيـادة كتـشنر علـى السودان ألحق حافظ بهذه الحملة رغم أنفه، وحدث ان عاد ذات مرة إلـى المعسكر متأخرا، فصاح فيه الحارس الانجليزى الذى كان يقف عند بوابة المعسكر. مين هناك، وكرر النداء أكثر من مرة وارتبك حافظ ولـم يـدر ماذا يفعل ثم صاح مجيبا أنا انجليزى يا جورج.

ومما يروى ان حافظ كان يكره شاعرا من شعراء عـصره كراهيـة شديدة، وكان هذا الشاعر يتولى منصبا مهما يحتاج حافظ إليه، لذلك كـان يبدى له الود وان كان يبغضه فى حقيقة نفسه. سأله هذا الشاعر ذات مرة عن رأيه فى أعظم شاعر فأجاب حافظ إنه المتنبى فساله : واعظم ما قاله، فأجاب:

ومن نكد الدنيا على الحـر أن يرى   عدوا له ما من صداقته بد

ومما يذكر من طرائف حافظ أنه رأى رجلا كبير الكرش، فقـال لـه مداعبا: ما أراك إلا ممن يطلبون المساواة بين المرأة والرجـل، فأجابـه: نعم، فقال حافظ: ظاهر لقد حملت عنها حملها" ، "ومر يوما على رجل يبيع مراوح، فساله عن ثمنها، فقدم له مروحة، وقال له: هذه بقرش واحد، ثـم قدم له أخرى مثلها وقال له: وتلك بقرشين، ونظر حافظ فى المـروحتين

وقلبهما، ولم يجد فرقا بينهما، فقال له: هذه تأتى بهواء بحرى والأخرى تأتى بهواء قبلى!" ، ومما يذكر أنه دعا جماعة من أصحابه إلى طعام، وجاءوا معهم بصديق لهم، لم يكن يعرفه ولاحظ حافظ أنه يكثر من الأكل، فقال له : ترى ماذا كان يكون أمرك لو كنت من المدعوين، هلا ذكرت أنك مدعو من باطن مدعو، ثم قال له : يا أخى إنك تشبه الخزانة التى بها درج سرى!" و "دعى حافظ مع جماعة على طعام، وكان على المائدة ديك رومى صغير لم يعجب حافظ، فقال للمضيف: ما أظن هذا الديك إلا دجاجة نفختها بمنفاخ دراجة، ثم قدمته لنا على أنه ديك رومى".

وكتب حافظ ذات مرة إلى جار له لم يَدْعُهُ لحفل زفافه فقال:

أحامد كيف تنسانى وبينى وبينك يا أخى صلة الجوار
وبيتى فارغ لا شئ فيه سواى واننى فى البيت عارى
وما لى جزمة سوداء حتى أوافيكم على قرب المزار
فإن لم تبعثن إلى حالا بمائدة على متن البخار
تغطيها من الحلوى صنوف ومن حمل تتبل بالبهار
فإنى شاعر يخشى لسانى وسوف أريك عاقبة احتقارى

وعلى الرغم من خفة دم حافظ ونكتته فقد كان فى قراره نفسه حزينا على نفسه وحزينا على وطنه فقد أجاد الرثاء فى كل منها، فبعد أن تعرض للمرض وعاش وحيدا كتب قائلا:

مرضنا فما عادنا عائد ولا قيل أين الفتى الألمعى
ولا هش طرس إلى كاتب ولا خف لفظ على مسمعى

سكتنا فعز علينا السكـــوت   وهان الكلام على المدعــــــى

وإلى جانب ذلك فقد أعلن حافظ ابراهيم عن تبرمـــه وحزنــــه الـــدفين وسخطه من الحياة التى يعيشها فقال:

عزت الســلعـــة الذليلة حتـــى   بات مسح الحذاء خطبا جساما
وغذا القوت فى يد الناس كاليا   قوت حتى نوى الفقير الصياما
ويخال الرغيف فى البعد بدرا   ويظن اللحوم صيدا حرامـــــا

ثم يندب حافظ حظ أبناء وطنه وما هم فيه من ذل وحرمان بينما يعيش الأجنبى الذى يفد إلى مصر وكأنه المتحكم فى مصائر الأمور فيقول:

بنو مصر فى حمى النيل صرعى   يرقبون القضاء عاما فعاما
أيها النيل كيــف نمســـى عطاشا   فى بلاد رويت فيها الأناما
يرد الواغـــل الغريـــب فيـــروى   وبنوك الكرام تشكو الأواما
قد شقيـــنا ونـــحن كرمنــــا اللـــ   ـــه بعصر يكرم الانعامــــا

وهكذا يتضح من هذه المواقف التى تتسم بالحيوية والمـــرح ان حـــافظ كان يتندر فى دعابة على ما وصلت إليه الأحوال فكـــان حـــزين الـــروح مكتئب النفس حينا، مرحا يسخر بالحياة ويستهين بها فى دعابة فكهة فـــى أحيان أخرى.

خاتمـــة

لقد ذاق شاعرنا حافظ ابراهيم من العذاب والفقر ألوانا وصدمته الحياة صدمات عنيفة قتلت طموحه، ومن يستعرض شعره يجد فى كل قـصيدة منه ألما وبؤسا ويأسا وشكوى من الدنيا ومن فيها جعلته يحس بصلة وثيقة بينه وبين البؤساء، وربما ذلك هو الذى دفعه إلى ترجمة البؤساء لفيكتـور هوجو لقد نشأ حافظ فقيرا وظل يشكو الفقر معظم حياته، كما ظل يـسخط على حظه الذى يلازمه ومع ذلك فقد كان الأمل ينبعث دائما مـن خـلال يأسه وروحه المضطربة. كما أن موهبته جعلته يهمل كل شئ فى سبيلها، وجعلت من فقره وسيلة لإذكاء نورها، ففى مدرسة اليـتم والفقـر التـى خرَّجت لمصر الأفذاذ والعباقرة عرفت نفس حافظ معنى الحيـاة والألـم، فأعد نفسه للشعر، وكان له غرام باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى، وبـدأ يسلك السبل التى أعدها القدر له حيث انطبعت حياة الشعب المصرى فـى نفسه، وأوحت إليه كما أوحى له حب مصر كل شعره، فأخذ يقتحم بشعره كافة الميادين ويحطم ما حوله من الأوهام ويستنهض الهمم، فكان صـوتا قويا لمصر ينشد أغانى الحرية ويترنم باسم الدستور وتـصوير عواطـف المصريين وآلامهم وآمالهم، وفى نفس الوقت يدفع نفوسهم إلـى الفكاهـة والطرب بشعره والحماسة له. فكان حافظ ابراهيم رغـم بؤسـه ظريفـا يضحك جالسه من الأعماق ويسخر من كل شئ حتى من وجـوده، وإلـى جانب ذلك كان سريع البديهة ، وسطا بـين شـعراء الحريـة القوميـة ، وشعراء الحرية الشخصية فليس له فى شعراء عصره نظير فى الجمع بين

الخصلتين والظهور بحالة قومه وحالة نفسه معا فهو شاعر الحياة المصرية بكافة أحوالها، فتحدث عن الأزمات التى مرت بها مصر، كما تحدث عن حياته الشخصية فى هزله وخلجات نفسه بأسلوب يتميز بقوة البلاغة وطلاوة الأسلوب وقد أنصفه أمير الشعراء احمد شوقى بقوله:

وغدا سيذكرك الزمان ولم يزل للدهر انصاف وحسن جزاء

لقد كان حافظ صادقا فى وطنيته صدقا جعله يعبر عن كل ما يدور فى نفسه خاصة وأنه كان من طبقات الشعب، ومن صميم هذه الطبقات التى سكبت فى روحه روح مصر الخالدة، وجعله القدر قيثارته توحى إليها ربات الشعر، فإذا شعب مصر يتغنى بقصائده، وإذا أرض مصر التى ترعرع عليها تبارك له هذا الشعر الذى مهد النفوس لاستنهاض الهمم فقامت ثورة ١٩١٩، وأدى رسالته فى توضيح ما تنبض به القلوب وتهوى إليه الأفئدة من أمل وألم ، وخوف ورجاء وتوثب للعزة وخشية الانكسار. فتحية إلى الرجل الذى أبدع الشعر السياسى فى اللغة العربية، وكان شاعر مصر الاجتماعى بلا منازع.

وهكذا ساير حافظ ابراهيم النهضة المصرية منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى وفاته فى ٢١ يوليو ١٩٣٢ فكان له فيها آثار تشهد بما له من فضل فى النهضة الوطنية والأدبية التى اجتاحت مصر خلال هذه الفترة وتدل على انه كان الأديب المناضل، الفذ والشاعر البليغ الذى جرد من قلمه سيفا شهيره فى وجه أعداء المصريين، ونظم من شعره سهاما طالما كانت قاسية فى صدور المحتلين والغاصبين، لقد كانت حياة حافظ ابراهيم

مليئة بالمشاعر والأحداث التى جعلت منه شاعر البؤس والبؤساء، وشاعر الثورة على الأخلاق وشاعر الانسانية المعذبة، وشاعر الوطنية، وشـــاعر الاجتماع والشاعر بآلام وأحلام المصريين، وإلى جانب ذلك فقد كانت نفس حافظ فى جوهرها نفسا مصرية تجد بساطتها فى كـــل أثـــر مـــن آثـــار المصريين، فلم لا يحبها الناس ويرون فيها أنفسهم، ولم لا يعجب بها الناس وإنما ينظرون فيها إلى صورهم تعكسها مرآة صافية نقيـــة ومـــضيئة لا يشوبها صدأ، ولا يغشاها غبار، لقد خالط حافظ الناس جميعا فأصبح هـــو الناس جميعا فقراء وأغنياء، تراه فى كل بيئة وفى كل مكان تراه فى حديقة الأزبكية يقرض الشعر، وتراه فى الشوارع يماشى أصدقاءه ضاحكا ممـــا يحزن ومما يسر، وتراه بائسا ليرى بؤس الناس من حولـــه . رحمـــه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

أهم مصادر الدراسة

- حافظ إبراهيم:

  ١- ديوان حافظ إبراهيم ، القاهرة، ١٩٣٧.

  ٢- ليالى سطيح ، القاهرة، ١٩٠٦

- سمير سرحان ومحمد عنانى: أروع ما كتب شاعر النيل حافظ ابراهيم، القاهرة، ١٩٩٥م.
- عباس العقاد: شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى، القاهرة، ١٩٣٧.
- عبد الرحمن الرافعى:

  ١- ثورة ١٩١٩ (تاريخ مصر القومى ١٩١٤-١٩٢١) القاهرة، ١٩٨٧.

  ٢-شعراء الوطنية فى مصر، القاهرة ١٩٦٦.

- عبد العاطى كيوان : الفكاهة والسخرية عند حافظ إبراهيم، القاهرة، ١٩٩٧.
- كامل الشناوى: زعماء وفنانون وأدباء، القاهرة، ١٩٧٢.
- محمد حسين هيكل: الأدب والحياة المصرية، القاهرة، ١٩٩٢.
- محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده، جـ١، القاهرة، ١٣٥٠هـ.
- محمد كامل جمعه : حافظ ابراهيم ، القاهرة، ١٩٥٨.
- محمود السعدنى : الظرفاء، القاهرة، ١٩٩٢.